الهدي النبوي في التعامل
مع المخالف في العهد المكي

إعداد الأستاذ الدكتور

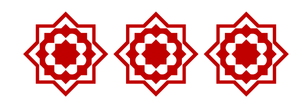
عبدالرحمن بن علي الحطاب

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وأصاحبه أجمعين، وبعد:

فإن سيرة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ هي التطبيق العملي للإسلام في كلياته وجزئياته، وهي كلها تتلقى منه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ لأنه الأسوة والقدوة: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ولقد لقي النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في العهد المكي من الشدة والضيق والعنت والاستهزاء والسخرية والأذية بكل صنوفها ما لا يعلمه إلا الله، وكذلك لقي أصحابه رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ من ذلك حظًا وافرًا، حتى إن منهم من ترك وطنه فرارًا بدينه، ومنهم من أوثق، وعذب، ومنهم من مات جراء التعذيب، وهم متقبلون ذلك بإيمان راسخ، ورجاء ثواب عظيم من الله، فما كان التجويع، ولا الضرب، ولا الحرق، ولا القتل يثنيهم عن دينهم؛ لأن حلاوة الإيمان استقرت في سويداء قلوبهم، فهم تلذذوا بهذا الإيمان، ووجدوا حلاوته واشتاقوا إلى الجنة والزيادة، فكان ذلك مؤنسًا لهم، ومنسيًا لهم ما يصيبهم، لأنهم موقنون بموعود الله على لسان رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وقد كانت هذه الفترة من أشد الفترات على رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وعلى أصحابه الذين آمنوا به وصدقوه، ولما كانت الأمة الإسلامية تمر اليوم في بعض البقاع بشيء مما مرت به في تلك الفترة، واحتاج الحكام والدعاة، بل والأفراد استلهام العبر من سيرة المصطفى صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وحكمته للخروج بسلام من بعض ما يواجهونه من محن، لهذا تشجعت في كتابة هذا البحث عسى أن يكون زادًا، ومعينًا لطالب الحق، وسميته [الهدي النبوي في التعامل مع المخالف في العهد المكي].



خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة وثلاثة مباحث:

أما المقدمة فتشتمل على: أهمية البحث وأسباب اختياره، وخطة البحث والمنهج المتبع في إخراجه.

أما المباحث فهي على النحو التالي:

المبحث الأول: ملخص للعهد المكي مع تأصيل لأحكامه، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: ملخص للعهد المكي.

المطلب الثاني: تأصيل لأحكام العهد المكي.

المبحث الثاني: أسباب عداوة المخالفين لدعوة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في العهد المكي وأساليبهم في محاربتها، وفيه مطلبان:

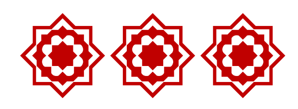
المطلب الأول: أسباب عداوة المخالفين لدعوة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

المطلب الثاني: أساليب المخالفين لدعوة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في محاربتهم لها.

المبحث الثالث: تعامل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مع المخالفين لدعوته في العهد المكي، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: حفظ الدعوة في جانب الوجود.

المطلب الثاني: حفظ الدعوة في جانب العدم.



المنهج المتبع لإخراج البحث:

يتلخص منهجي في إخراج البحث فيما يلي:

١ - جمع المادة العلمية المتعلقة بالبحث وتوزيعها حسب مباحث الخطة، مع العزو والتوثيق.

٢ - ذكر اسم السورة ورقم الآية في الصلب منعًا من إثقال الحاشية.

٣- تخريج الأحاديث النبوية من مصادرها المعتمدة مع بيان درجته.

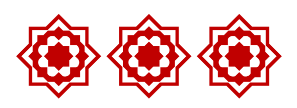
٤ - عزو الآثار إلى مصادرها، دون الالتزام ببيان صحتها.

٥ - الترجمة للأعلام على وجه الإيجار.

٦ - وضع فهرسين: الأول: للمصادر والمراجع. والثاني للموضوعات .

وختامًا أرجو العلي القدير بمنه وكرمه أن يجعل العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به طلاب العلم، إنه جواد كريم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آلـه وصحبه أجمعين



المبحث الأول: ملخص للعهد المكي مع تأصيل لأحكامه

المطلب الأول: ملخص للعهد المكي

مرت البشرية قبل بعثة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بفترة انقطع فيها الوحي وطمست فيها معالم الرسالة وانتشرت رايات الشرك والظلم والطغيان، فاختلت الموازين والقيم، وبدا الحق في صور الباطل، والباطل في صورة الحق.

وكانت البشرية في غاية الضرورة لهداية إلهية تنقذها مما حل بها من بؤس وشقاء، فقد حُرِّفَت الكتب السماوية السابقة، وكتم أهلها الحق وألبسوه بالباطل، فاستحقوا لعنة الله وغضبه.

وكان اليهود في يثرب (المدينة المنورة) يؤججون نار الحقد بين الأوس والخزرج بأن نبيًّا منهم -أي اليهود- سيبعث قريبًا وسيقضون به عليهم[(١)].

كان العصر عصر جاهلية بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ورسله، وشرائع الدين، عاش فيه جاهليون لا يؤمنون بوحدانية الله، بل يجعلون له شركاء في العبادة، قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٤-٧]، جاهليون لا يؤمنون بالبعث ولا النشور، بل يسخرون من ذلك: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾ [ق: ٢-٣]، ويمارسون التشريع من دون الله فيحلون ويحرمون على مقتضى أهوائهم: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝١٣٦ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ۝١٣٧ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝١٣٨ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ۝١٣٩ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾

(١) انظر: تاريخ الأمم والملوك، للطبري (٣٢٦)، وسيرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لابن هشام (٢/ ٣٨).

[الأنعام: ١٣٦-١٤٠]، ويبلغ السخف أحيانًا بالجاهلين منتهاه حينما ينسبون تشريعاتهم وما يرتكبونه من فواحش إلى الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

يقول الأستاذ محمد قطب: "لقد كانت تستعبدهم في الحقيقة أرباب أربعة، أو فئات أربع من الأرباب في آن واحد، ربوبية الأصنام المعبودة، والجن، والملائكة، وغيرها من المعبودات التي يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى، أو لتشفع لهم عند الله، وربوبية القبيلة، وربوبية العرف الموروث عن الآباء والأجداد، وربوبية الهوى والشهوات، وهذا كله مع ادعاء العبادة نظريًّا لله، والمعرفة النظرية بأنه خالقهم وخالق الكون والحياة"(١).

وأصدق وصف لما كان يسود المجتمع المكي من عقائد وقيم ما عبَّر عنه جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢) أمام النجاشي ملك الحبشة حيث قال: "كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف ..."(٣).

إن البشرية كانت أحوج ما يكون إلى هداية ورسالة، وقد ورد في الصحيح: (... وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك ...)(٤) الحديث.

ففي هذه الفترة ولد محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومات أبوه(٥)، وهو في بطن أمه(٦)، ثم

(١) انظر: منهج التربية، لمحمد قطب (٢/ ٢٣).

(٢) جعفر بن أبي طالب (عبد مناف) بن عبد المطلب، يقال له: جعفر الطيار، من السابقين للإسلام، استشهد في وقعة مؤته سنة (٨هـ). انظر: الاستيعاب (١/ ٢٤٢)، الإصابة (١/ ٥٤٨).

(٣) انظر: الكامل، لابن الأثير (٢/ ٨١)، وسيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لابن هشام (١/ ٣٥٨-٣٥٩).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا وأهل الجنة، برقم (٥١٠٩).

(٥) عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، والد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو أصغر أبناء عبدالمطلب، توفي سنة (٥٣ ق هـ). انظر: الأعلام (٤/ ١٠٠).

(٦) آمنة بنت وهب بن عبد مناف من قريش، أم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأفضل امرأة في قريش نسبًا ومكانةً، توفي سنة (٤٥ ق هـ). انظر: الأعلام (١/ ٢٦).

توفيت أمه آمنة قبل أن يستكمل سبع سنين وكفله جدَّه الذي توفي وعُمْر محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثمان سنين، ثم انتقلت كفالته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عمه أبي طالب[(١)] التي طالت به الحياة إلى أن بعث رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على رأس أربعين سنة من عمره، فكان يحميه ويدافع عنه أذى قريش، ولكنه لم يدخل في الإسلام، بل مات على الشرك، ولله حكمته في ذلك وفي غيره[(٢)].

ثم حبب إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل البعثة الخلاء، فكان يخلو بغار حراء يتعبد فيه، ثم جاءه جبريل بسورة اقرأ فنبأه الله بها، ثم بعد ذلك أنزل الله عليه سورة المدثر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ١-٧]، أمره الله بالتبليغ فقام صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما أمره به ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خير مقام.

وكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أول الأمر يدعو إلى ربه سرًّا، فدخل الناس واحدًا بعد واحد في الإسلام وقريش لا تنكر ذلك[(٣)].

واستمرت الدعوة السرِّيَّة ثلاث سنين[(٤)]، ثم أمر الله نبيه أن يجهر بالدعوة: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٤-٩٥] وأن يبدأ بعشيرته الأقربين:

---

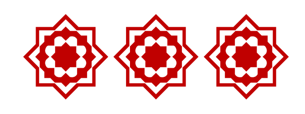
(١) عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم، أبو طالب، عم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وناصره، توفي سنة (٣ ق هـ). انظر: طبقات ابن سعد (١/ ٧٥)، الأعلام (٤/ ١٦٦).

(٢) يقول ابن كثير في تفسيره (٢/ ٨٠): "... فصانه في ابتداء الرسالة بعمه أبي طالب، إذ كان رئيسًا مطاعًا كبيرًا في قريش، وخلق الله في قلبه محبة طبيعية لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا شرعية، ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها، ولكن لمَّا كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر هابوه واحترموه ...".

(٣) لعل عدم إنكار قريش للإسلام أول أمره هو وجود ظاهرة الحنفية في مجتمعهم، وهي عبادة الله تعالى على دين إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ونفي الشريك عن الله تعالى ونبذ الأصنام، ويمثل هذه الظاهرة: زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وأمية بن أبي الصلت، وكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتحنث الليالي ذوات العدد قبل البعثة، في غار حراء، وقريش لا تنكر ذلك. انظر: المنهج الحركي للسيرة النبوية، للدكتور منير الغضبان (٢٣-٢٤).

(٤) انظر: تاريخ الأمم والملوك، للطبري (٣١٧)، الكامل، لابن الأثير (٢/ ٦١)، سيرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لابن هشام (١/ ٢٧٤).

﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ۝٢١٤ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤-٢١٥] وبعدها بدأ المشركون بالتعرض له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ولأصحابه الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ، لا سيما بعد أن عاب آلهتهم التي يعبدونها، وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا كفارًا، فغضبوا لذلك وعادوه وتعرضوا له، ولأصحابه، وكان لهذا التعرض أسباب عديدة، واستعملت قريش في تحقيقها وسائل متنوعة، وقد تعامل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ مع تلك الوسائل بكل حكمة بتوجيه من الباري، أو إلهام منه وتوفيق مراعيًا في ذلك مقتضى الحال، واعتبار المآل، وفي هذا البحث أتعرض -بإذن الله- لبيان شيء من تلك الأسباب والوسائل، مع بيان العلاج والهدي النبوي في التعامل معها، وقبل ذلك الوقوف على التأصيل الشرعي للأحكام الواردة في العهد المكيِّ.



المطلب الثاني: تأصيل أحكام العهد المكي

تنقسم الأحكام المكيَّة إلى قسمين:

القسم الأول: ما أخبر به النبي أو عمل به بصفته مبلِّغًا عن ربه، وهي أحكام شرعية، والأصل العمل بها ما لم يرد عليها ناسخ من كتاب أو سنة.

وهذه الأحكام منها ما هو متفق على عدم توجه النسخ لها، كالأحكام العقدية، لأنها مما اتفقت عليه الشرائع(١).

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الشورى: ١٣].

ومن الأحكام التي لم يتطرق لها النسخ -أيضًا- تلك الأحكام الواردة في كلام الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب للنجاشي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده، ولا نشرك به شيئًا، وإقام الصلاة، والزكاة، والصيام)(٢).

وهذه الأحكام منها ما هو داخل في القسم الأول -الأحكام العقدية-، ومنها ما هو داخل في قسم الأخلاق السامية النبيلة، ومثلها لا ينسخ.

---

(١) انظر: الشرائع السابقة ومدى حجيتها، للدكتور عبدالرحمن الدرويش (٢٥٥).

(٢) انظر: السيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لابن هشام (١/ ٣٥٨-٣٥٩)، والكامل، لابن الأثير (٢/ ٨١).

قال الشاطبي: «المسألة الرابعة: القواعد الكلية، من الضروريات، والحاجيات والتحسينات[(١)]، لم يقع فيها نسخ، وإنما وقع النسخ في أمور جزئية بدليل الاستقراء[(٢)]»[(٣)].

ومعلوم أن الجامع للأمور التحسينية -كما يقول الشاطبي- «قسم مكارم الأخلاق»[(٤)].

ومن الأحكام المذكورة في كلام الصحابي الجليل ما يدخل في الأمور التعبدية كالصلاة، والصيام، وهي من أركان الإسلام الخالدة التي لم يتطرق لها نسخ.

أما الأحكام التي ورد الخلاف في بقائها أو نسخها فهي تلك الأحكام الواردة في نصوص شرعية متضافرة ومتواترة في حثه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصبر، وأمره بالجنوح للسلم، وعدم سب آلهتهم، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، والإعراض عنهم، وترك أذاهم، ودفع سيئتهم بالإحسان، والعفو والصفح عنهم، إلى غير ذلك مما فيه نوع مساهلة ومدارة مع الكفار، ومن تلك النصوص:

قال الله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ﴾ [يونس: ١٠٩]، وقوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: ١٣٠]، وقوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُواْ

---

(١) الضروريات، أو لمقاصد الضرورية، وهي التي ترجع إلى حفظ مقصود من المقاصد الخمسة، وهي: الدين، والنفس، والعقل، والبضع، والمال. وهي التي لابد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة بل على فساد وتهارج، وتفويت الحياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران. أما الحاجيات أو المقاصد الحاجية فهي: ما افتقر إليها من حيث التوسعة ورفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة، اللاحقة بفوت المطلوب، فإذا لم تراع دخل على المكلفين على الجملة الحرج والمشقة، ولكنه لا يبلغ مبلغ الفساد العادي المتوقع في المصالح العامة. أما التحسينات أو المقاصد التحسينية فهي: الأخذ بما يليق من محاسن العادات، وتجنب الأحوال المدنسات التي تأنفها العقول الراجحات، ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق. انظر: الموافقات (٢/ ٨-١١).

(٢) الاستقراء هو: تتبع الجزئيات أو بعضها للوصول إلى حكم عام يشملها جميعًا. انظر: روضة الناظر (١/ ١٤٢)، وشرح التنقيح (٤٤٨)، والتقرير والتحبير (١/ ٨٥).

(٣) انظر: الموافقات (٣/ ١١٧).

(٤) انظر: الموافقات (٢/ ١١).

﴿وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وقوله: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ﴾ [المائدة: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقوله: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، [فصلت:٣٤]، وقوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ [النساء: ٦٣]، [النساء: ٨١]، [الأنعام: ٦٨]، [السجدة: ٣٠]، وقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ [الصافات: ١٧٤]، [الذاريات: ٥٤]، [القمر: ٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ [البقرة ١٣٩]، وقوله: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

وهذه النصوص وأمثالها اختلف العلماء في بقاء أحكامها، وقد ادعى جمع كثير من العلماء نسخها بآيات القتال(١) التي شرعت في العهد المدني.

يقول مكي بن أبي طالب(٢): «باب نذكر فيه جملة آي من القرآن نسخها شيء واحد من القرآن: اعلم أن الله -جل ذكره- لطيف بعباد، حكيم في تدبيره، خبير بما تؤول إليه أمور خلقه، لما بعث رسوله محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، كان المسلمون قليلًا عددهم، خفيفة كلمتهم، أمرهم بالإعراض عن المشركين، والصبر على أذاهم، والعفو عنهم، والغفران لهم، إملاء للمشركين، واستدراجًا لهم، لتتم حكمته وقضاؤه فيهم. فأقام المسلمون على ذلك بمكة نحو عشرة أعوام، فلما كَثُرَ عددهم، وتقوَّت كلمتهم، وهاجروا إلى المدينة وباينوا دار الكفر، أنزل الله عليهم بالمدينة: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ الآية [التوبة: ٢٩]، وأنزل: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥]، وأنزل: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وأنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة:

---

(١) عبِّر أكثر المفسرين بنسخ الآيات السابقة بآية السيف، ثم اختلفوا في المراد بها، والجمهور منهم أن المراد بها قوله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥]، ومن العلماء من عبَّر بآيات السيف، ومنهم من عبَّر بآيات السيف في براءة وغيرها، ومنهم من عبَّر بآيات القتال، ومن خلال تتبعي لتلك الآيات المدعى نسخها، ظهر لي أن المراد بها جميع آيات القتال، وقد فصَّلت ذلك في بحث لي محكم، في طريقه للنشر، بعنوان: (شروط النسخ دراسة أصولية نظرية تطبيقية على الآيات المدعى نسخها بآية السيف).

(٢) مكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار القيسي، مقرئ، عالم بالتفسير والعربية، توفي سنة (٤٣٧ هـ). انظر: وفيات الأعيان (٢/ ١٢٠)، الأعلام (٧/ ٢٨٦).

٧٣]، وأنــزل: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبـة: ٣٦]، وأنــزل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فنسخ ذلك جميع ما أمروا به في أول الإسلام، وبعد وصولهم إلى المدينة من الصفح والعفو، والصبر على الأذى، والمغفرة»[١]، ثم بدأ يعدد الآي المنسوخة بذلك، ثم قال: «وهذا النوع كثير في القرآن يستدل على ما بقي بما ذكر، وفي بعضه اختلاف سنذكره في موضعه إن شاء الله»[٢] ا.هـ.

والحكم بالنسخ أو البقاء متوقف على وجود التعارض، ووجود التعارض بين المنسوخ به والمنسوخ في الظاهر، كما في ظن المجتهد، شرط من شروط النسخ، وفي إثبات التعارض ونفيه بين الآيات المتعارضة ميدان المجتهدين، والفيصل في جُلِّ الآيات المدَّعى نسخها، وهو في الظاهر واقع في آيات القتال، والآيات المدَّعى نسخها بها. وذلك لأن آيات القتال تأمر بقتال المشركين، وكثير من الآيات المدَّعى نسخها فيها مدارة ومساهلة مع الكفار، بتركهم والصبر عليهم، ودعوتهم ومجادلتهم بالتي هي أحسن إلى غير ذلك مما سبق.

وقد انبرى عدد كبير من العلماء لدفع التعارض الواقع بينهما[٣]، وذلك لأن إعمال الدليلين أولى من إهدارهما -بالتوقف- أو إهدار أحدهما وذلك بدعوى النسخ.

وقد ذكر جمع من العلماء المحققين وجوهًا يمكن أن يجمع بين تلك الآيات المكية، وآيات القتال، ومن ذلك:

١- إن الآيات المكية المتضمنة للحث على الصبر، والإعراض عن الجاهلين، والمجادلة بالتي هي أحسن ... الخ، كل ذلك من الأخلاق السامية العامة، ومثلها لا ينسخ، كما سبق.

(١) انظر: الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه، لمكي (١٠٣-١٠٤).

(٢) انظر: الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه، لمكي (١٠٤).

(٣) إما بطريق الجمع، أو الترجيح، أو النسخ، فمنهم من قال: يبدأ بالجمع، ثم النسخ، ثم الترجيح، ومن العلماء من قال: يبدأ بالجمع، ثم الترجيح، ثم النسخ، أما جمهور الحنفية فقد ذهبوا إلى تقديم النسخ على غيره من وجوه الدفع. انظر: ضوابط الترجيح، لابن يونس (٢١٦-٢١٨).

٢- بخصوص الآيات التي تحث على الصبر، فهي آيات لا تنافي الأمر بقتالهم، إذ إن الصبر في الحقيقة هو من لوازم القتال، وهو محتاج إليه، ولا يتحقق النصر إلا به، ولهذا يجوز أن يصبر ويقاتلهم[١]، كما يمكن أن يحمل الصبر على ما أمر الله به، أو عما نهى عنه، فيكون عامًّا في جميع التكاليف، والمعنى: فاصبر في كل ما حكم به ربك سواء كان ذلك تكليفًا خاصًّا بك من العبادات والطاعات، أو متعلِّقًا بالغير، وهو التبليغ وأداء الرسالة، وتحمل المشاق من أجل ذلك[٢].

٣- بخصوص الآيات التي تحث على العفو والصفح[٣] فقد حمل كثير من العلماء العفو والصفح عنهم على مكارم الأخلاق، بأن يظهر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الخلق الحسن، والعفو والصفح. فالعفو باب آخر غير ترك القتال، وأما القتال فله أسبابه[٤].

٤- بخصوص الآيات الآمرة بجدالهم، فهي كذلك لا تنافي القتال، لأن المولى سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لم يقل له: اقتصر على جدالهم، فيكون المعنى: جادلهم فإن أبوا فالسيف[٥].

فالمجادلة إذًا لا تعني عدم القتال، وإنما تقتضي الإتيان بالدليل لنقض مطلوب أو إثباته، ويمكن اجتماع المجادلة بالحسنى، والأمر بقتالهم لتأتي تنزيل كل منهما في موضعه الصحيح، مع أن الإغلاظ لهم في المجادلة أيضًا غير ممنوع[٦].

---

(١) انظر: نواسخ القرآن، لابن الجوزي (٤٧٤).

(٢) انظر: التفسير الكبير، للرازي (٣/ ٤٥٤) ، روح المعاني (٤/ ١٤٨)، الناسخ والمنسوخ، للنحاس (٣/ ٨٦٦) ، نواسخ القرآن، لابن الجوزي (٤٢٥، ٤٦٥).

(٣) ذكر ابن العربي في كتابه الناسخ والمنسوخ (٢/ ٢٧٦). إن الصفح حيث وقع في القرآن منسوخ، بالأمر بالقتال.

(٤) انظر: التفسير الكبير (١/ ٦٥٢) ، (٢/ ٢٧٦) ، (٤/ ٣٢٥)، التحرير والتنوير (٦/ ١٤٥)، أضواء البيان (٧/ ٣٣٦).

(٥) انظر: نواسخ القرآن، لابن الجوزي (٣٨٧).

(٦) انظر: التحرير والتنوير (٢١/ ٥).

٥- بخصوص الآيات الآمرة بالإعراض عنهم[1]، والذي جعل هؤلاء العلماء يقولون بالنسخ هو حملهم الإعراض على ترك المقابلة والمقاتلة كما قال الرازي ثم قال: «وهذا ضعيف؛ لأن الأمر إذا كان كذلك لم يجب التزام النسخ. وقيل: المراد ترك مقابلتهم فيما يأتونه من سفه، وأن يعدل صلوات الله عليه إلى الطريق الذي يكون أقرب إلى القبول، وأبعد عن التنفير والتغليظ»[2].

ونفى التعارض -الرازي- في موضع آخر حيث قال: «وأكثر المفسرين يقولون بأن كل ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ﴾ منسوخ بآية القتال، وهو باطل، فإن الأمر بالإعراض موافق لآية القتال، فكيف ينسخ به؟ وذلك لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان مأمورًا بالدعاء بالحكمة والموعظة الحسنة، فلما عارضوه بأباطيلهم قيل له: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ ثم لما لم ينفع، قال له ربه: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ ولا تقابلهم بالدليل والبرهان، فإنهم لا يتبعون إلا الظن، ولا يتبعون الحق، وقابلهم بالإعراض عن المناظرة بشرط جواز المقابلة، فكيف يكون منسوخًا؟»[3].

كما حمل جمع من المفسرين الإعراض في الآيات السابقة عن مكابرتهم وأذاهم، لا الإعراض عن دعوتهم، ولهذا جاءت الآيات بعد ذكر الإعراض تدعوهم إلى الإسلام ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ﴾ [النساء: ٦٣].

ومن خلال ما سبق يظهر -والعلم عند الله- أن تلك الأحكام باقية غير منسوخة، يمكن للأمة العمل بها، لا سيما إذا ما مرت بنفس تلك الظروف.

(١) انظر: قال قتادة: «كل شيء في القرآن فأعرض عنهم وانتظر، منسوخ نسخته براءة والقتال». انظر: نواسخ القرآن، لابن الجوزي (٤٢٧).
(٢) انظر: التفسير الكبير (٥/ ١٠٧-١٠٨)، نواسخ القرآن، لابن الجوزي (٤٧٢).
(٣) انظر: التفسير الكبير (١٠/ ٢٦٠).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: " لمَّا أتى الله بأمره الذي وعده من ظهور الدين وعز المؤمنين؛ أمر رسوله بالبراءة إلى المعاهدين[٢] وبقتال المشركين كافة[٣]، وبقتال أهل الكتاب: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾[٤]؛ فكان ذلك عاقبة الصبر والتقوى اللَّذَيْن أمر الله بهما في أول الأمر، وكان إذ ذاك لا يؤخذ من أحد من اليهود الذين بالمدينة ولا غيرهم جزية[٥]، وصارت تلك الآيات في حق كل مؤمن مستضعف لا يمكنه نصر الله ورسوله بيده ولا بلسانه، فينتصر بما يقدر عليه من القلب ونحوه، وصارت آية الصغار على المعاهدين في حق كل مؤمن قوي يقدر على نصر الله ورسوله بيده أو لسانه.

وبهذه الآية ونحوها كان المسلمون يعملون آخر عُمُر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وعلى عهد خلفائه الراشدين، وكذلك هو إلى قيام الساعة، لا تزال طائفة من هذه الأمة قائمين على الحق ينصرون الله ورسوله النصر التام؛ فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف أو في وقت هو فيه مستضعف فليعمل بآية الصبر والصفح عمن يؤذي الله ورسوله من الذين أوتوا الكتاب والمشركين.

---

(١) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، تقي الدين أبو العباس، ابن تيمية، الإمام، شيخ الإسلام، (ت ٧٢٨هـ). انظر: الدرر الكامنة (١/ ١٤٤)، الأعلام (١/ ١٤٤).

(٢) يشير إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [التوبة: ١].

(٣) يشير إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾ [التوبة: ٣٦].

(٤) اقتباس من الآية (٢٩) في سورة التوبة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

(٥) الجزية تطلق على العقد، وعلى المال الملتزم به، وتؤخذ من أهل الذمة وهي مشتقة من الجزاء وهو المقابلة، لأنهم قابلوا الأمان بما أعطوا من المال، فقابلناهم بالأمان. قال بعض العلماء: إن الحكمة في وضع الجزية هي أن الذل يلحقهم فيحملهم على الإسلام، مع ما في مخالطة المسلمين من الاطلاع على محاسن الإسلام. انظر: المصباح المنير (١/ ١٠٠)، المطلع (١٤٠)، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية (١/ ٥٣٠).

وأما أهل القوة فإنما يعملون بآية قتال أئمة الكفر الذين يطعنون في الدين، وبآية قتال الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون" اهـ[(١)].

ويقول السيوطي[(٢)] -عند ذكره أقسام النسخ-: «ما أمر بسبب ثم يزول السبب، كالأمر حين الضعف والقلة بالصبر والصفح، ثم ينسخ بإيجاب القتال، وهذا في الحقيقة ليس نسخًا بل هو من قسم المنسأ[(٣)]، كما قال تعالى: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، فالمنسأ هو الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون، وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى، وبهذا يضعف ما لهج به كثيرون من أن الآية في ذلك منسوخة بآية السيف، وليس كذلك، بل هو من المنسأ، بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما لعلة تقتضي ذلك الحكم، بل ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، وليس بنسخ إنما النسخ الإزالة للحكم حتى لا يجوز امتثاله»[(٤)].

القسم الثاني: ما أخبر به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمل به بصفته راع مسؤول عن رعيته، وعليه فإن الأصل في تلك الأعمال، العمل بها بحسب ما تقتضيه المصلحة الشرعية[(٥)]، لدخولها في السياسة الشرعية العامة، ومثل هذه الأحكام لا يتطرق لها النسخ، ويكون

---

(١) الصارم المسلول (٢/ ٤١٣).

(٢) جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السيوطي، إمام مشهور، صاحب تصانيف عديدة، (ت ٩١١هـ). انظر: حسن المحاضرة، للسيوطي (١/ ٣٣٥)، البدر الطالع، للشوكاني (١/ ٣٢٨).

(٣) النسأ: التأخير عن وقت إلى وقت انظر: المعجم الوسيط (٩١٦)، المصباح المنير (٢/ ٦٠٤).

(٤) انظر: الإتقان (٢/ ٥٧)، البرهان، للزركشي (٢/ ٤٢).

(٥) يقول ابن نجيم في البحر الرائق (٥/ ١١) في تعريفه للسياسة: "فعل شيء من الحاكم لمصلحة يراها، وإن لم يرد بذلك الفعل دليل جزئي". وقال ابن القيم في الطرق الحكمية (١٧) نقلًا عن ابن عقيل بأنها: ما كان فعلًا يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يضعه الرسول ولا نزل به وحي. وقد حذَّر ابن القيم في إعلام الموقعين (٤/ ٣٧٢-٣٧٣)، والطرق الحكمية (١٣-١٤): من منع الأخذ بالسياسة، مكتفيًا بما جاءت به النصوص، وتفريط من ظن أن الأخذ بها يبيح لولي الأمر فرض ما يراه من عقوبة على هواه ... الخ. وفي الموسوعة الكويتية (٢٥/ ٢٩٦): "فالمصلحة هي الغرض من السياسة".

العمل بها حسب المصلحة العامة، والعمل بالمصلحة هو مقصد الشريعة الأعم، فالشرع إنما جاء لتحصيل المصالح وتكميلها، ودرء المفاسد وتقليلها، وقد جعل العلماء لفقه المصالح والمفاسد قواعد عامة، روعي فيهما فقه الموازنة بينهما، أو بين المصالح ذاتها، أو المفاسد، وخلاصة ما ذكره أهل العلم في ذلك:

١ - التوفيق والجمع بين المصالح ما أمكن، والدفع والدرء للمفاسد.

٢ - التغليب والترجيح بين المصالح إذا تعذر الجمع بينهما، فالمصالح العامة مقدمة على المصلحة الخاصة، والمصلحة المتعلقة بحفظ الدين مقدمة على غيرها، كحفظ النفس، والعرض والعقل، والمال . أما المفاسد فيراع أعظمهما بارتكاب أخفهما.

٣- التخيير أو الإقراع بين المصالح، أو المفاسد عند التساوي.

٤ - أما إن تعارضت المصالح والمفاسد: فإن أمكن تحصيل المصالح ودرء المفاسد فهو المطلوب، وإن لم يمكن تحصيل المصلحة إلا بارتكاب شيء من المفاسد فينظر في هذه الحالة إلى الراجح والغالب منهما؛ فإن كان الغالب المصلحة لم ينظر إلى المفسدة اللاحقة، وإن كان الغالب المفسدة لم يُنظر إلى المصلحة(١).

وبعد بيان شيء من الجانب النظري التأصيلي لهذا النوع من أنواع الأحكام الداخلة، تحت السياسة الشرعية يمكن إبراز بعض الأمثلة النبوية والمستخدمة في العهد المكي فمن ذلك:

١ - ما سبق ذكره من بدأه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بالدعوة السرية من حين كلف بالدعوة ونزول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ [المدثر: ١-٢]، إلى أن أمر بالصدع بها، مستصحبًا في ذلك الحِكَم والمصالح المترتبة على ذلك، ومن تلك: عدم مفاجأة

(١) ويحسن التنبيه إلى أن تلك المصالح والمفاسد لا يعرف مقدارها إلا بالتقريب، والمرجع في معرفة وجودها الظن الغالب، وهي من موارد الاجتهاد التي قد يختلف فيها النظر بين المجتهدين، وتقديرها لهم وليس لآحاد المسلمين، وهي داخلة في الحكمة التي أمرنا بها المولى سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بقوله: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

قريش بالدين الجديد، لما عُرف عنهم من شدة تعصب، فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو من كانت تشده إليه قرابة أو معرفة سابقة، بالإضافة مصلحة حفظ الدين والنفس، وذلك بالحفاظ على الدعوة وأهلها من بطش قريش وجبروتها، قبل أن يتمكن الإيمان في صدور المؤمنين.

يقول البوطي: "وبناء على ذلك فإنه يجوز لأصحاب الدعوة الإسلامية في كل عصر أن يستعملوا المرونة كنهضة الدعوة - من حسب التكتم والجهر واللين والقوة حسب ما يقتضيه الظرف وحال العصر الذي يعيشون فيه .. على أن يكون النظر في ذلك إلى مصلحة المسلمين ومصلحة الدعوة الإسلامية[١].

ومما يدخل في الدعوة السرية -أيضًا- عدم تدخل المسلمين في شؤون غيرهم ممن حولهم في نقد، أو مواجهة، أو مخالفة ظاهرة، بل لو تعرض لهم المشركون فهم مأمورون بالصفح والإعراض، والأخير من القسم الأول كما سبق.

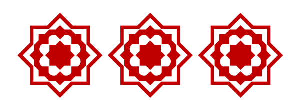
كما يدخل في السرية -أيضًا- اتخاذهم دارٍ يجتمع بها الأصحاب بعيدًا عن أعين الناس يتدارسون بينهم، ويناقشون قضاياهم، كما فعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دار الأرقم بن أبي الأرقم.

٢- ومن ذلك حماية أصحابه من بطش قريش، إما بالسماح لهم بالدخول تحت حماية الكافر كما فعل هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذا صاحبه الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أو بالسماح والأمر لهم بالهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة.

وحماية الأشخاص فيه مصلحة حفظ النفس، وهي مصلحة ظاهرة، أما مصلحة حفظ الدين بالجهر به في المرحلة السرية فهي مصلحة موهومة، أو منتفية الوقوع في بعض الأحيان، لذلك قدمت مصلحة حفظ النفس.

(١) انظر: فقه السيرة النبوية، للبوطي (٦٩).

٣- الوسائل الدعوية المستخدمة في العهد المكي عمومًا -وإن كانت تدخل فيما سبق-، ولهذا فإن الوسائل الدعوية إنما يصح السؤال عن ثبوتها أو نسخها -في نظري- أن لو كانت توقيفية، والراجح أنها غير توقيفية[(١)].



(١) انظر: بتوسع هذه المسألة مع ضوابط الوسائل الدعوية كتاب الدكتور مصطفى مخدوم قواعد الوسائل في الشريعة الإسلامية (٣١٧) وما بعدها.

المبحث الثاني: أسباب عداوة المخالفين لدعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في العهد المكي وأساليبهم في محاربتها

أمر الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يجهر بالدعوة بقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٤-٩٥] وأن يبدأ بعشيرته الأقربين بقوله سبحانه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤-٢١٥]، ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٩]، وبعدها بدأ المشركون بالتعرض له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولأصحابه الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكان لهذا التعرض أسبابه، ووسائله أتناولهما في المطلبين التاليين:

المطلب الأول: أسباب عداوة المخالفين لدعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١)

أولًا: الحسد: وهو تمني زوال النعمة من الغير(٢). ومن ذلك قول أبي جهل(٣) لما بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قال: "تنازعنا وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذبنا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبدًا، ولا نصدقه"(٤).

ثانيًا: الاستكبار: وهو الامتناع عن قبول الحق، والتعالي على الخَلق(٥).

و مما يدل على ذلك ما حكاه المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنهم قال تعالى: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ١].

---

(١) انظر: أساليب المجرمين في التصدي لدعوة المرسلين للمسند (٨٧) وما بعدها، باختصار وتصرف.

(٢) انظر: المعجم الوسيط (١٧٢)، المصباح المنير (١/ ١٣٥).

(٣) عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي، من سادات قريش، تكنيه بأبي الحكم، من أشد الناس عداوة للنبي وأصحابه، هلك في غزوة بدر سنة (٢هـ). انظر: الأعلام (٥/ ٨٧).

(٤) انظر: سيرة النبي لابن هشام (١/ ٣٣٨).

(٥) انظر: المعجم الوسيط (٧٧٣)، المصباح المنير (٢/ ٥٢٤).

وقال الآخرون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] (مع بيان سببها)[١].

ثالثًا: الجحود: وهو الإنكار مع العلم[٢]، قال تعالى مسليًا نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

رابعًا: التقليد الأعمى للآباء والرجال: قال تعالى عن كفار قريش: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ﴾ [البقرة: ١٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩].

خامسًا: التمسك بالعادات والحفاظ على المألوف: قال الله تعالى حاكيًا قول المشركين لما دُعوا إلى توحيد الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

وقد ذكر الواحدي[٣] في سبب نزول هذه الآية أن صناديد قريش جاءوا إلى أبي طالب، فقالوا له: أنت شيخنا وكبيرنا، وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء -يعنون محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ- وإنا أتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك فأرسل أبو طالب إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدعاه، فقال: يا بن أخي، هؤلاء قومك يسألونك ذا السؤال فلا تَمِلْ كل الميل على قومك. قال: "وماذا يسألوني؟" قالوا: ارفضنا وارفض آلهتنا وندعك وإلهك، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أتعطوني كلمة واحدة تملكون بها

(١) اختلف في الرجل الذي وصفوه بأنه عظيم بعد الاتفاق على القريتين أنهما مكة والطائف، فقيل: هما الوليد من أهل مكة أو حبيب بن عمرو الثقفي من أهل الطائف، وقيل: بل عني به عتبة بن ربيعة من أهل مكة وابن عبد ياليل من أهل الطائف، وقيل: غير ذلك. انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (٢٥/ ٦٤)، تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ١٧٤)، سيرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لابن هشام (٢/ ٢٠٧).

(٢) انظر: المعجم الوسيط (١٠٧)، المصباح المنير (١/ ٩١).

(٣) علي بن أحمد بن محمد أبو الحسن الواحدي، مفسر، عالم بالأدب، توفي سنة (٤٦٨هـ). انظر: وفيات الأعيان (١/ ٣٣٣)، الأعلام (٤/ ٢٥٥).

العرب، وتدين لكم بها العجم؟" فقال أبو جهل: لله أبوك، لنعطيَّنكها وعشر أمثالها، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "قولوا: لا إله إلا الله" فنفروا من ذلك، فقاموا وقالوا: أجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟ كيف يسع الخلق كلهم إله واحد؟ فأنزل الله فيهم هذه الآيات(١).

سادسًا: التعلق بالدنيا والرضا بها والاغترار بزخرفها: قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].

قال ابن كثير(٢) رَحِمَهُ اللَّهُ: "يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى عليهم آيات الله، ظاهرة الدلالة، بينة الحجة، واضحة البرهان، أنهم يصدون ويعرضون عن ذلك، ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم، ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم: ﴿...خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي: أحسن منازل، وأرفع دورًا، وأحسن نديًّا، وهو مجتمع الرجال للحديث، أي ناديهم أعمر وأكثر واردًا وطارقًا، يعنون: فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل، وأولئك الذين هم مختفون مستترون في دار الأرقم بن أبي الأرقم(٣) ونحوها من الدور، على الحق...."(٤).

سابعًا: كراهية الحق: قال تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٩].

ثامنًا: الطغيان: وهو مجاوزة الحد المشروع الذي حده الله عَزَّ وَجَلَّ(٥)، قال تعالى عن المكذبين بالرسل: ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣]، وقال سبحانه: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُم

(١) أسباب النزول، للواحدي (٢١٠)، وانظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (١/ ٥٤٤)، وتاريخ الأمم والملوك، للطبري (٣١٨)، وسيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لابن هشام (٢/ ٢٥).

(٢) انظر: إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوّ القرشي، أبو الفداء، عماد الدين، حافظ، مؤرخ، فقيه، توفي سنة (٧٧٤هـ). انظر: الدر الكامنة (١/ ٣٧٣)، وشذرات الذهب (٦/ ٢٣١).

(٣) الأرقم بن عبد مناف بن أسد المخزومي، من السابقين للإسلام، كانت دار بمكة عند الصفا، تسمى دار الإسلام، توفي سنة (٥٥هـ). انظر: الاستيعاب (١/ ١٣١)، الإصابة (١/ ٤٣).

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ١٣٥).

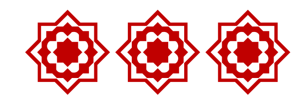
(٥) انظر: المعجم الوسيط (٥٥٩)، المصباح المنير (٢/ ٣٧٤).

أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الطور: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩].

تاسعًا: اتباع الهوى: قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٣].

عاشرًا: اتباع الشيطان: قال تعالى يصف مشهدًا من مشاهد يوم القيامة: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِىۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

الحادي عشر: عدم الإيمان بالآخرة والشك بيوم الدين: قال تعالى في وصف أعداء الرسل: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٥]، وقال تعالى حاكيًا قول المجرمين: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المدثر: ٤٦].



المطلب الثاني: أساليب المخالفين لدعوة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في محاربة الدعوة الإسلامية[(١)]

استخدم المخالفون للدعوة الإسلامية في العهد المكي أساليب متنوعة محاولة منهم لمنعها وكبتها في مهدها، وقد اتخذت تلك الأساليب جميع الحيل الشيطانية التي قد تخطر على بال البشر، يؤزهم ويساعدهم في ذلك قائدهم إلى جهنم وبئس المصير الشيطان الرجيم، وبالطبع إلا من أدركه المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ برحمته وهدايته، فآمن وحسن إسلامه، ومن تلك الأساليب:

أساليب في المكر والخداع وقد وصف القرآن الكريم ذلك بقوله سبحانه: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

ومنها: المخالطة ومحاولة إلباس الحق بالباطل، قال تعالى عنهم: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

ومنها: الإلحاد في آيات الله وأسمائه، إما بجحودهم لبعض الأسماء، كاسم الرحمن، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]، وإما باشتقاق أسماء منها للأصنام ونحوها، كاشتقاقهم اسم اللات من الله والعزى من العزيز ومناة من المنان.

ومنها: الكبر وقطع ما أمر الله به أن يوصل، وقد كان أبو لهب[(٢)] -عم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يتبع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سوق ذي المجاز[(٣)]، وكلما قال النبي

(١) انظر: أساليب المجرمين في التصدي لدعوة المرسلين للمسند (١٦٧) وما بعدها، والمعوقين للدعوة الإسلامية في عهد النبوة، للدكتوره سميرة جمجوم (١٥٩) وما بعدها.

(٢) عبدالعزى بن عبد المطلب بن هاشم، عم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأحد زعماء قريش، وأشدهم عداوة للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هلك بعد وقعة بدر بأيام ولم يشهدها (٢هـ). انظر: الأعلام (٤/ ١٢).

(٣) يقول الشيخ محمد بن عبد الله بليهد في كتابه صحيح الأخبار عما ورد في بلاد العرب من الآثار (٢/ ٥٠): "ذو المجاز واقع في وادي المغمس، إذا قطعت وادي الشرائع المعروف وأنت قاصد مكة أتيت وادي المغمس في الطريق على يسارك، فإذا أنت حاذيت كبكب فهو هناك، فيه آثار قديمة لا تزال ماثلة إلى هذا العهد، وهو سوق من أسواق الجاهلية المشهورة".

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا" قال أبو لهب: أنه صابئ كاذب"(١).

ومنها: افتراء الكذب على الله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧].

ومن الكذب على الله نسبتهم الولد إلى الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الصافات: ١٥١-١٥٢]، وقال سبحانه: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٤-٥]. وكذا الحلف بالباطل، ولذا أرشد المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نبيه بقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ١٠]، أي كثير الحلف، حقير وضيع، ومن مهانته أنه يحلف كاذبًا(٢)، وقال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٤].

ومنها: تولي بعضهم بعضًا، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الجاثية: ١٩].

ومنها: تحذيرهم للعامة من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحضهم على التمسك بما هم عليه من عبادة غير الله والصبر على ذلك: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦].

ومنها: إشغال العامة بتجمعات باطلة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ [لقمان: ٦]، وقد ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث(٣) كان يشري المغنيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى إحداهن فيقول: "أطعميه وأسقيه وغنيه"، ويقول: "هذا خير مما يدعوك إليه محمد"(٤).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤/ ٣٤١)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ٢٣٦) (٤/ ٥٦٥)، وانظر: سيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لابن هشام (٢/ ٣٢)، وتاريخ الأمم والملوك، للطبري (٣٢٥).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٨/ ٢٣١)، زاد المسير، لابن الجوزي (٨/ ٣٣١).

(٣) النضر بن الحارث بن علقمة من بني عبد الدار، صاحب لواء المشركين ببدر، أسره المسلمون ببدر وقتلوه سنة (٢هـ). انظر: الأعلام (٨/ ٣٣).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٤/ ٥٢).

ومنها: المساومة، والإغراءات، قال تعالى محذِّرًا نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣].

قال عتبة بن ربيعة[١] -وهو من صناديد قريش- يومًا لقومه: "يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه، وأعرض عليه أمورًا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا؟ قالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه. فقام عتبة حتى أتى رسول الله فجلس إليه، وقال: يا ابن أخي، إنك منَّا حيث علمت من السِّطَة[٢] في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرَّقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعِبْتَ به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. فقال له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (قل يا أبا الوليد أسمع). قال: يا ابن أخي، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا سوَّدناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًّا[٣] تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطبيب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوى منه ... أو كما قال له ... حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستمع منه، قال: (أقد فرغت يا أبا الوليد؟) قال: نعم، قال: (فاسمع مني)، فتلا عليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أول سورة فصلت ... الخ"[٤].

---

(١) عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، أبو الوليد، أحد سادات قريش كان موصوفًا بالرأي والحكمة، هلك يوم بدر سنة (٢هـ). انظر: الأعلام (٤/ ٢٠٠).

(٢) السِّطَة -بكسر السين وفتح الطاء مخففة-: المنزلة الرفيعة.

(٣) الرئي: التابع من الجن، سمي بذلك لأنه يتراءى لمتبوعه. انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير (٢/ ١٧٨)، المعجم الوسيط (٣٢٠).

(٤) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (١٥/ ١٦٤)، والجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٣٢٨) (١٣/ ٥)، تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٦٣) (٤/ ٩٢)، سيرة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لابن هشام (١/ ٣١٣-٣١٤)، تاريخ الأمم والملوك، للطبري (٣٢١).

ومن صور المساومة التي استخدمته قريش في حربها لدعوة نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثها رجلين من رجالاتها بهدية إلى النجاشي، في سبيل تسليمه لمهاجرة الحبشة لكن الله خيب سعيهم، فقد رد النجاشي هديتهم، ورفض طلبهم[(١)].

ومنها: الوشاية، واستعداء السلطة عليهم، كما في قصة عمرو بن العاص[(٢)] عندما ذهب إلى النجاشي، وقال له: فإنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم، فقال النجاشي حينئذ: ما تقولون في عيسى ابن مريم وأمه؟ فقال جعفر بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: نقول كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى مريم العذراء البتول التي لم يمسها بشر، ولم يفرضها ولد. فرفع النجاشي عودًا من الأرض ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما يسوى هذا، مرحبًا بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله، فإنه الذي نجد في الإنجيل، وإنه الرسول الذي بَشَّرَ به عيسى ابن مريم، انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضيئه ... فعاد الوفد القرشي خائبًا[(٣)].

ومنها: التولي والاستكبار، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣]، فهم: ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ﴾ [هود: ٥]، وكانوا يرجعون مولين كراهية سماع الحق كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٦]، وقال سبحانه واصفًا حال المجرمين: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١].

---

(١) انظر: سيرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لابن هشام (١/ ٣٥٦-٣٥٧).

(٢) انظر: عمرو بن العاص بن وائل السهمي، فاتح مصر، وأحد عظماء العرب ودهاتهم، توفي سنة (٤٣هـ). انظر: الإصابة (٤/ ٦٥٠)، الأعلام (٥/ ٧٩).

(٣) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (٧/ ٢)، تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٣٦١)، سيرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لابن هشام (١/ ٣٦٠).

ومنها: الصد عن سبيل الله، وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخرج إلى الحرم فيصلي فيه، ويجهر بصلاته قليلًا ليسمع من حوله، وكانت قريش تحذر الناس -لاسيما الغرباء- من الاستماع إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والاقتراب منه لئلا يسحرهم بكلامه -بزعمهم- فكان بعضهم يحشوا أذنيه قطنًا حذرًا من الاستماع إليه[(١)]، قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦].

ومنها: الإعراض عن قبول النصيحة: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

ومنها: التربص بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، وكانت قريش تقول دعوا محمدًا فما هو إلا شاعر نتربص به الموت، كما مات شاعر بني فلان، وشاعر بني فلان[(٢)].

ومنها: تبرير المواقف واختلاق الحجج، محاولة منهم في إقناع غيرهم للسير في ركابهم، والوقوف في صفهم، ومن تلك: الاحتجاج باتباع دين الآباء والأجداد كقولهم: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠]، وقولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وكذا احتجاجهم بالملل السابقة، قال تعالى حاكيًا قولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ [ص: ١٧].

ومنها: طلب الآيات والمعجزات، فقالوا: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠] فرد الله عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]، والكتاب الذي أنزل على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو المعجزة الخالدة إلى قيام الساعة، إلى قوم عُرِفُوا بالفصاحة والبلاغة، وقد تحداهم الله بأن يأتوا بمثله، ثم بعشر سور مثله، ثم بسورة واحدة فعجزوا عن ذلك، ومع ذلك نجدهم يحاولون الطعن

---

(١) انظر: كما حدث للصحابي الجليل الطفيل بن عمرو الدوسي. انظر قصته: سيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لابن هشام (١/ ٤٠٧).

(٢) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (٢٧/ ٣١)، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١١/ ٢٨٧).

فيه من جهة أخرى بقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢] وقد ذكر ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا(١) وغيره أن كفار قريش قالوا في بعض معارضاتهم: لولا كان هذا القرآن من عند الله تعالى لنزل جملة واحدة، كما أنزلت التوراة والإنجيل(٢)، وقد تولى الله عَزَّ وَجَلَّ الرد على هذه الشبهة في تمام الآية: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢].

ومنها: الاحتجاج على عدم اتباع الحق برذالة أتباعه: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] فقال المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ موجهًا رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وقد نزلت هذه الآيات عندما طلب كفار قريش من رسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يطرد من حوله من فقراء المؤمنين أمثال بلال، وصهيب(٣)، وعمار، وخباب(٤)، وأن يجعل لهم مجلسًا غير مجلسهم، وحذَّر المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستجيب لهم(٥). ويتبع ما سبق قولهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]، أي: هؤلاء الفقراء(٦). ومن ذلك قول المشركين أيضًا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣]، فرد الله عليهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

---

(١) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، حبر الأمة، وابن عم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توفي سنة (٦٨هـ). انظر: الأعلام (٤/ ٩٥).

(٢) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (١٩/ ١٠)، والجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٢٨)، زاد المسير (٦/ ٨٨).

(٣) صهيب بن سنان بن مالك، من بني النمر بن قاسط، من أرمى العرب سهمًا، وأحد السابقين للإسلام، توفي سنة (٣٨هـ). انظر: الاستيعاب (٢/ ٧٢٧) ، الإصابة (٣/ ٤٤٩).

(٤) خباب بن الأرت بن جندلة التميمي، من السابقين للإسلام، وأول من أظهر إسلامه، توفي سنة (٣٧هـ). انظر: الاستيعاب (٢/ ٤٣٨)، الإصابة (٢/ ٢٥٨).

(٥) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (٧/ ٢٠٠)، (١٥/ ٢٣٥)، تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ١٣٥) (٣/ ٨١)، سيرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لابن هشام (١/ ٤٢٠).

(٦) انظر: المصادر السابقة.

ومنها: الاحتجاج على بطلان الحق بكونه غريبًا حيث قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]. وكذا احتجاجهم على بطلانه ببشرية الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]، ومن ذلك قولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وقولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝٣٣ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣-٣٤].

ومنها: الاحتجاج بالقدر على عدم دخولهم الإسلام، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وهو أسلوب عقيم مضلل، بل المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بيَّن لهم طريق الخير وطريق الشر، ومشيئة لا تخرج عن مشيئته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يميزون بها بين ما يضرهم وما ينفعهم، وأمرهم باتباع طريق الحق والهدى، فاختاروا طريق الشر بمحض مشيئتهم وإرادتهم[(١)].

ومنها: التعنت والعناد والمشاقة، قال تعالى في وصف الوليد بن المغيرة[(٢)]: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ [المدثر: ١٦]، أي معاندًا للحق، مجانبًا له[(٣)]، ومن ذلك: محاولة التعجيز وطلب المستحيل كقولهم: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ [البقرة: ١١٨]، وقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨]، وقولهم: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الحجر: ٧]، وقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١]، ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣]، وقد روى ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا خبر مساومة

---

(١) يقال لهم كما يقول ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٤٥): "لم تقولون عن مخالفيكم أنهم ضالون، وإنما هم على المشيئة أيضًا فلا حجة لهم لأنهم تعلقوا بالمشيئة وتركوا الأمر ومشيئة الله تعم جميع الكائنات وأمره لا يعم مراداته فعلى العبد اتباع الأمر وليس له أن يتعلل بالمشيئة بعد ورود الأمر".

(٢) الوليد بن المغيرة بن عبد الله، من قضاة العرب في الجاهلية، ومن زعماء قريش، هلك بعد الهجرة بثلاثة أشهر. انظر: الأعلام (٨/ ١٢٢).

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٩/ ٧٢)، زاد المسير، لابن الجوزي (٥/ ٣٢٦).

قريش، وفيها أنهم قالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلادًا، ولا أقل مالًا، ولا أشد عيشًا منا، فسل ربك الذي بعثك بما به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيّقت علينا، ويبسط لنا بلادنا، وليفجّر لنا فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخًا صدوقًا، فنسألهم عما تقول، حق هو أم باطل؟! فإن صنعت ما سألناك، وصدقوك صدقناك، وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك بالحق رسولاً كما تقول ... فإن لم تفعل لنا هذا، فخذ لنفسك، فسل ربك أن يبعث ملكًا يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، واسأله فليجعل لك جناتًا وكنوزًا وقصورًا من ذهب وفضة ، ويغنيك بها عما نراك تبتغي .... الخ"[(١)].

إنهم ينكرون الآيات البينات الواضحات، مما يدل على شدة عنادهم وتعنتهم، وقد أخرج الشيخان عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)] أن أهل مكة سألوا رسول الله أن يريهم آية، فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء[(٣)] بينهما، وفي رواية غير الصحيحين أنهم لما رأوا ذلك قالوا: هذا سحر، سحركم ابن أبي كبشة[(٤)]، فانظروا إلى السفَّار فإن أخبروكم أنهم رأوا مثل ما رأيتم فقد صدق، فما قدم عليهم أحد إلا أخبرهم بذلك[(٥)]، فما زادهم إلا تماديًا في العناد[(٦)]، قال

---

(١) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (١٥/ ١٦٥)، وتفسير القرآن العظيم (٣/ ٦٤)، زاد المسير (٥/ ٨٦)، سيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لابن هشام (١/ ٣١٦).

(٢) أنس بن مالك بن النضر الخزرجي الأنصاري، خادم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، توفي سنة (٩٣هـ). انظر: الاستيعاب (١/ ١٠٩)، الإصابة (١/ ١٢٦).

(٣) انظر: حراء -بكسر أوله ممدود- على وزن فِعال، جبل بمكة. انظر: معجم ما استعجم، للبكري (٤٣٢) ، ومعجم البلدان، للحموي (٢/ ٢٣٣).

(٤) انظر: كتاب الاعتقاد للبيهقي (٢٦٩)، ونقله ابن حجر في فتح الباري عن أبي نعيم في الدلائل، وفيه: فإن محمدًا لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ﴾ [القمر: ١-٢]، برقم (٤٤٨٩)، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب انشقاق القمر، برقم (٥٠١٣).

(٦) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (٢٧/ ٨٥)، وتفسير القرآن العظيم (٣/ ١٥)، زاد المسير (٨/ ٨٨).

تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ [القمر: ١-٢] أي: سحر دائم، بل إنهم ليطلبون المعجزات لأنفسهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ولشدة تعنتهم وعنادهم ليتساءلون حين يؤخر عنهم الوحي: ﴿مَا يَحۡبِسُهُۥٓۚ﴾ [هود: ٨] أي: أي شيء يمنعه من النزول[١]، ويتساءلون عن تأخر قيام الساعة تكذيبًا وعنادًا فيقولون: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨].

ومنها: إثارة الشكوك والشبهات، وقد سبق ذكر شيء من تلك الشكوك والشبهات، حينما كانوا يتعنتون مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ويطلبون شيئًا من المعجزات، ومن ذلك قولهم: ﴿لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ﴾ [القصص: ٤٨] أي: هلا أعطاه الله من الآيات مثل ما أعطى موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كالعصا واليد والطوفان ... إلخ يقولون ذلك تعنتًا و عنادًا، وإثارة لشبهة القدرة والتمكن عند رسولنا الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ. فكانوا يشككون في الكتب المنزلة: فنفوا الوحي، أو إنزال شيء من الكتب، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ [الأنعام: ٩١]، وقالوا عنه: ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ﴾ [الأنبياء: ٥]، وقالوا: ﴿إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ﴾ [سبأ: ٤٣] وغير ذلك. كما أنهم شككوا في الملائكة فقالوا إنهم: بنات الله -تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا-، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ﴾ [الصافات: ١٥٨] حيث إنهم قالوا: إن الله تزوج إلى الجن فخرج منها الملائكة[٢].

ومنها: التضييق على المؤمنين ومنعهم من ممارسة شعائرهم الدينية، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا في قوله تعالى: ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ﴾ [القلم: ١٢] يمنع عن الإسلام ولده وعشيرته[٣]، وقال الحسن[٤]: يقول لهم : لئن دخل واحد منكم في دين محمد، لا أنفعه بشيء أبدًا[٥].

---

(١) انظر: فتح القدير، للشوكاني (٢/ ٤٨٣).

(٢) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (٢٣/ ١٠٨)، وزاد المسير (٧/ ٩١).

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٨/ ٢٣٢).

(٤) الحسن بن أبي الحسن بن يسار البصري الأنصاري مولاهم، ثقة فقيه، مشهور، وكان يرسل كثيرًا، توفي سنة (١١٠هـ). انظر: تذكرة الحفاظ (١/ ٧١)، وتهذيب التهذيب (٢/ ٢٦٣).

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٨/ ٢٣٢)، فتح القدير، للشوكاني (٥/ ٢٦٩).

ومن ذلك ما رواه البخاري[(١)] عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن أبا جهل قال: لئن رأيت محمدًا يصلي عند الكعبة، لأطأن على عنقه[(٢)]. وفي رواية أنه مر برسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو يصلي عند المقام، فقال: يا محمد، ألم أنهك عن هذا؟ وتوعده، فأغلظ له رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وانتهره، فقال أبو جهل: بأي شيء تهددني يا محمد؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي ناديًا، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ [العلق: ٩-١٩][(٣)]. يقول جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[(٤)]: لبث رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عشر سنين، يتبع الحجاج في منازلهم في الموسم[(٥)]، وبمجنة، وبعكاظ، وبمنازلهم بمنى، ويقول: (من يؤويني وينصرني حتى أبلغ رسالات ربي عَزَّوَجَلَّ وله الجنة، فلا يجد أحدًا ينصره، ويؤويه، حتى إن الرجل من مضر أو اليمن، فيأتيه قومه، فيقولون له: احذر غلام قريش لا يفتنك، ويمشي بين رحالهم يدعوهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ يشيرون إليه بالأصابع)[(٦)].

كما أنهم ضيقوا وحاولوا منع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من تبليغ الرسالة، لاسيما بعد وفاة عمه أبي طالب[(٧)]، والذي وفَّرَ له -بتوفيق من الله- الحماية الكافية، مما جعل النبي

---

(١) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، أبو عبدالله، الحافظ المحدث، توفي سنة (٢٥٦هـ). انظر: وفيات الأعيان (١/ ٤٥٥)، الأعلام (٦/ ٣٤).

(٢) انظر: أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ...﴾ [العلق: ١٥]، برقم (٤٥٧٦).

(٣) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (٣٠/ ٢٥٦)، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٥٣٠)، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢٠/ ١٢٧)، وزاد المسير، لابن الجوزي (٩/ ١٧٧).

(٤) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري، صحابي من المكثرين في الرواية، توفي سنة (٧٨هـ). انظر: الاستيعاب (١/ ٢١٩)، الإصابة (٤/ ١٨٩).

(٥) انظر: سيرة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، لابن هشام (٢/ ٣١).

(٦) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣/ ٣٢٢، ٣٣٩)، وابن حبان في صحيحه (١٥/ ٤٧٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٦٨١)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٧) انظر: تاريخ الأمم والملوك للطبري (٣٢٣)، وسيرة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، لابن هشام (٢/ ٢٨).

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحاول الخروج بالدعوة إلى الطائف، يلتمس من أهلها النصرة والحماية، فلقي منهم أشد ما لقي من قومه[١] فعاد إلى مكة مهمومًا طريدًا، فلم يستطع دخولها إلا محتميًا بجوار المطعم بن عدي[٢]، واستمر بعدها يعرض نفسه على القبائل في المواسم ويقول: (ألا رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشًا منعوني أن أبلغ كلام ربي)[٣]، ومن ذلك أيضًا: ما حصل للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن معه من المؤمنين من محاصرة في الشعب[٤].

ومنها: التشويش على العامة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، واللغو: الكلام الذي لا نفع فيه[٥]، وقد كان كفار مكة يعارضون النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الطواف، ويصفرون ويصفقون، يخلطون عليه طوافه وصلاته[٦]، ومعنى قولهم: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾: أي لعلكم بفعلكم هذا أن تحولوا بين الناس وبين سماع القرآن، أو فهمه إن سُمِع، ومن ثم تركه وترك اتباعه والإيمان به، فتغلبون بذلك محمدًا[٧]. قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [الصف: ٨-٩]، ومن ذلك -أيضًا- ما كان يفعله أبو لهب وهو يتبع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقول -قبحه الله-: (يا أيها الناس إن هذا قد

---

(١) انظر: تاريخ الأمم والملوك (٣٢٤)، والكامل، لابن الأثير (٢/ ٩٢)، وسيرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لابن هشام (٢/ ٢٩).

(٢) مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، رئيس نوفل في الجاهلية وقائدهم في حرب الفجار، توفي سنة (٢هـ) قبل وقعة بدر. انظر: الأعلام (٧/ ٢٥٢).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب في القرآن، برقم (٤١٠٩)، والترمذي في فضائل القرآن، باب ما جاء كيف كانت قراءة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، برقم (٢٨٤٩)، وقال: حديث غريب صحيح.

(٤) انظر: الكامل، لابن الأثير (٢/ ٨٨)، وسيرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لابن هشام (١/ ٢٨١-٢٨٢).

(٥) انظر: المعجم الوسيط (٨٣١)، المصباح المنير (٢/ ٥٥٥).

(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٩٩).

(٧) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (٢٤/ ١١٢)، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٥/ ٣٥٦)، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٩٩).

غوى، فلا يغوينكم عن آلهة آبائكم، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفر منه، وهو على أثره)[(١)].

ومنها: الأذى والتنكيل والبطش وقد استخدم المجرمون في ذلك أساليب متنوعة، منها: المعنوي، ومنها الجسدي، فمن التعذيب المعنوي: النبز والسب والشتم، كاتهامهم للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه يتلقى الوحي من مصادر مجهولة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، وقد ذكر ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)] عن عبد الله بن مسلم الحضرمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)] أنه كان لهم عبدان من أهل عير اليمن، وكانا طفلين، وكان يقال لأحدهما: يسار، والآخر: جبر، فكانا يقرآن التوراة، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربما جلس إليهما، فقال كفار قريش: إنما يجلس إليهما ليتعلم منهما[(٤)]، فأنزل الله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ [النحل: ١٠٣]. ومنهم: من زعم أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما تعلَّم من راهب ببصرى، يقال له: بحيرى، وذلك أثناء رحلته مع عمه أبي طالب في تجارة له إلى الشام. ومنها: اتهامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالشعر: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، ومنها قولهم: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤] وكذا اتهامه بالكهانة قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩] حيث إنها نزلت في الذين يرمون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالكهانة والسحر والجنون والشعر[(٥)]، ومن ذلك قولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، وهم يعلمون أنها

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣/ ٤٦٦)، وانظر: سيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لابن هشام (٢/ ٣٢).

(٢) محمد بن جرير بن يزيد، أبو جعفر الطبري، كان إمامًا في فنون كثيرة، منها: التفسير والحديث والفقه والتاريخ، وكان من الأئمة المجتهدين، توفي سنة (٢٢٤هـ). انظر: طبقات الشافعية الكبرى (٢/ ١٣٥)، وشذرات الذهب (٢/ ٢٦٠).

(٣) ذكره الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب (١/ ٤٥١) بهذا الاسم، وقال: يأتي في عبيد الله مصغرًا، وقال في (١/ ٥٣٩): عبيد الله بن مسلم، أو ابن أبي مسلم الحضرمي صحابي له حديثان، ويقال: تابعي.

(٤) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (١٤/ ١٧٨)، سيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لابن هشام (١/ ٤٢٠).

(٥) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (٢٧/ ٣١)، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٢٤٤).

تهم لا أساس لها، ولهذا قال النضر بن الحارث معترفًا بالإفلاس من مثل هذه التهم: "يا معشر قريش: إنه -والله- قد نزل بكم أمر ابتليتم بمثله، لقد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم في صُدْغَيْه الشيب، وجاءكم بما جاءكم، قلتم: ساحر، لا والله، ما هو بساحر، ولا بكاهن، ولا بشاعر، قد رأينا هؤلاء، وسمعنا كلامهم، فانظروا في شأنكم"[(١)]، وقد قال سبحانه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]. ومن السب والشتم قولهم عليه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مذممًا)، فقد روي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة، وفي يدها حجر، وهي تقول: مذممًا أبينا ... ودينه قلينا ... وأمره عصينا ...، وكان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: (ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم، يشتمون مذممًا، ويلعنون مذممًا، وأنا محمد)[(٢)]. ومن ذلك أيضًا: تسميتهم له بابن أبي كبشة، نسبة إلى أحد أجداده لأمه، يريدون بذلك مسبته وانتقاصه؛ لأن من عادة العرب إذا انتقصت أحدًا أن تنسبه إلى جد غامض غير معروف. ولم يكن السب والشتم متجهًا للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له وحده، بل لأتباعه، فمن ذلك قولهم: فلان صبأ[(٣)].

أما التعذيب الجسدي فقد اتخذ أشكالًا وألوانًا -أيضًا- مختلفة منها: الضرب، وقد حدث للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئًا من ذلك، فألقي عليه التراب[(٤)]، ووضع على ظهره سلى الجزور[(٥)]، ورماه السفهاء وهو عائد من الطائف حتى أدمو قدمه الشريفة[(٦)]. وقد نال

(١) انظر: سيرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لابن هشام (١/ ٣١٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، برقم (٣٢٦٩)، وانظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٠/ ٢٦٩) (٢٠/ ٢٣٤)، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٤٤) (٤/ ٥٦٦)، سيرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لابن هشام (١/ ٣٧٨-٣٧٩).

(٣) صبأ الرجل: ترك دينه ودان بآخر. انظر: المعجم الوسيط (٥٠٥).

(٤) انظر: تاريخ الأمم والملوك (٣٢٣)، وسيرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لابن هشام (٢/ ٢٦).

(٥) انظر: سيرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لابن هشام (٢/ ٢٥).

(٦) انظر: سيرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لابن هشام (٢/ ٢٩).

أصحابه من ذلك الشيء الكثير لاسيما المستضعفين منهم كآل ياسر، وبلال[(١)]، وغيرهم مما اشتهر وفاض[(٢)]. يقول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: أول من أظهر إسلامه سبعة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر[(٤)] و عمار[(٥)] وأمه سمية[(٦)] وصهيب وبلال والمقداد[(٧)] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فأما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون، فألبسوهم أدرع الحديد، وصهروهم في الشمس"[(٨)].

فبلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خرج به أمية بن خلف[(٩)] فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة على صدره، ثم يقول: لا والله، لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر

---

(١) بلال بن رباح الحبشي، أبو عبدالله، مؤذن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أحد السابقين للإسلام، توفي سنة (٢٠هـ). انظر: الإصابة (١/ ٣٢٦)، والأعلام (٢/ ٧٣).

(٢) انظر: تاريخ الأمم والملوك، للطبري (٣١٨)، و/ الكامل، لابن الأثير (٢/ ٦٧-٦٩)، وسيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لابن هشام (١/ ٣٣٩).

(٣) عبدالله بن مسعود بن غافل الهذلي، من السابقين للإسلام، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة، توفي سنة (٣٢هـ). انظر: الاستيعاب (٣/ ٩٨٧)، الإصابة (٤/ ٢٣٣).

(٤) عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن كعب التميمي القرشي، أول الخلفاء الراشدين، توفي سنة (١٣هـ). انظر: الاستيعاب (٣/ ٩٦٣)، الإصابة (٤/ ١٦٩).

(٥) عمار بن ياسر بن عامر الكناني، أبو اليقظان، أحد السابقين للإسلام، توفي سنة (٣٧هـ). انظر: الإصابة (٤/ ٥٧٥)، الأعلام (٥/ ٣٦).

(٦) سمية بنت خباط، من أول شهيد في الإسلام، أسلمت وهي عجوز، توفيت سنة (٧ ق.هـ). انظر: الاستيعاب (٤/ ١٨٦٣)، الإصابة (٧/ ٧١٢).

(٧) المقداد بن عمرو، ويعرف بالأسود الكندي، من أوائل من أظهر إسلامه، وأول من قاتل على فرس في سبيل الله، توفي سنة (٣٣هـ). انظر: الاستيعاب (٤/ ١٤٩٠)، الإصابة (٦/ ٢٠٢).

(٨) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٥٠٥)، وابن ماجة في المقدمة برقم (١٤٧)، والبيهقي في سننه (٨/ ٢٠٩)، وصححه الحاكم في المستدرك (٣/ ٣٢٠) (٣/ ٣٩٢) ووافقه الذهبي.

(٩) أمية بن خلف بن وهب، من بني لؤي، من سادات قريش، قتل ببدر سنة (٢هـ). انظر: الأعلام (٢/ ٢٢).

بمحمد وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد أحد[(١)].

ومن التعذيب الجسدي: الحبس، ومنع الحركة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وممن أثبت وأوثق في الله عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)] حين أسلم، فأخذه عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية[(٣)] فأوثقه رباطًا، وقال: أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث؟! والله لا أحلك أبدًا حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين. فقال عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والله لا أدعه أبدًا، ولا أفارقه، فلما رأى الحَكَمُ صلابته في دينه تركه[(٤)].

ومنه: الإخراج، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقد فعلوا ذلك قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: ٤٠]، وفي حديث بدء الوحي الطويل، أن ورقة بن نوفل[(٥)] قال لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يا بن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل على موسى، ياليتني فيها جذع، ليتني أكون حيًّا إذ أخرجك قومك، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أومخرجي هم؟)، قال: نعم ..."[(٦)] الحديث.

وبعد الإخراج لم يسلم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه من الملاحقة، فأما رسول الله فقد طاردوه، ورصدوا جوائز قيمة لمن يأتي به حيًّا أو ميتًا[(٧)]، وأما المؤمنون فقد لاحقوهم

---

(١) انظر: سيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لابن هشام (١/ ٣٤٠).

(٢) عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، ذو النورين، وثالث الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، توفي سنة (٣٥هـ). انظر: الاستيعاب (٣/ ١٠٣٧)، الإصابة (٤/ ٤٥٦).

(٣) الحكم بن العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي، أسلم يوم الفتح، وتوفي سنة (٣٢هـ). انظر: الاستيعاب (١/ ٣٥٩)، الإصابة (٢/ ١٠٤).

(٤) انظر: تاريخ الخلفاء، للسيوطي (١٥٠).

(٥) ورقة بن نوفل بن أسد القرشي، ابن عم خديجة زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، توفي سنة (١٢ ق.هـ). انظر: الإصابة (٦/ ٦٠٧).

(٦) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، برقم (٣)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، برقم (٢٣١).

(٧) انظر: سيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لابن هشام (٢/ ١٠٢).

يوم أن هاجروا إلى الحبشة ليردوهم إلى مكة. ويوم أراد المؤمنون الهجرة إلى المدينة تعرضوا للملاحقة والمطاردة، ومن ذلك ما حدث لصهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لكنه افتدى نفسه بماله فتركوه فلما قدم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينة قال له: (ربح البيع أبا يحي، ربح البيع أبا يحي)[١]، ونزلت فيه[٢]: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]، وهكذا الملاحقة استمرت لكل من أراد الهجرة من المؤمنين، إلا من خرج متخفيًا، أو كانت له منعة وقوة كعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣] وأمثاله، فلم يجرؤا على منعه.

ومن التعذيب الجسدي: العمد إلى القتل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ﴾ [غافر: ٥]، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: أي حرصوا على قتله بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله[٤].

وفي ختام هذه الأساليب تجدر الإشارة إلى أن هؤلاء المجرمين كغيرهم من أعداء الرسل، إذا نزل بهم البلاء استنجدوا بالرسل لكشفه، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤].

وقد روى عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن قريشًا لما استعصوا على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجَهْد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١٠-١١]، قال:

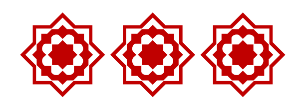
(١) انظر: المستدرك للحاكم (٣/ ٤٥٢)، والمعجم الكبير، للطبراني (٨/ ٣١، ٣٦)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (٢/ ٣٢١)، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٣/ ٢٠)، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٢٤٨).

(٣) عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي، ثاني الخلفاء الراشدين، توفي سنة (٢٣هـ). انظر: الإصابة (٤/ ٥٨٨).

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٧٢).

فأتي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقيل: يا رسول، استسق لمضر، فإنها قد هلكت. قال: (المضر؟! إنك لجريء)، فاستسقى فسقوا. فنزلت: ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥][1]، فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابهم الرفاهية، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦]، قال: يعني يوم بدر[2].



(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١١]، برقم (٤٤٤٧). ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب الدخان، برقم (٥٠٠٧).

المبحث الثالث: تعامل النبي ﷺ مع المخالفين لدعوته في العهد المكي

كان تعامل النبي مع المخالفين لدعوته على جانبين:

الأول: جانب دعوة وبلاغ وتربية، دون توقف ولا كلل ولا ملل، وهذا يمثل جانب الوجود، كما يعبر عنه المقاصديون عند حديثهم لحفظ الضروريات، ومنها حفظ الدين.

الجانب الثاني: جانب دفاع عن تلك الدعوة من ردود أفعال المخالفين لها، وهذا يمثل حفظها من جانب العدم.

وتفصيل ذلك في المطلبين التاليين:

المطلب الأول: حفظ الدعوة في جانب الوجود

يمكن بيان هذا الجانب وإظهار كيفية تعامل النبي معه خلال النقاط التالية:

❁ **النقطة الأولى:**

دعا النبي ﷺ قومه إلى التوحيد الخالص ونفي الشريك له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلال الفترة المكيَّة، والتي استمرت أكثر من ثلاث عشرة سنة، بالإضافة إلى تقرير الإيمان بالبعث وكانت هاتان القضيتان من أهم القضايا بروزًا في الدعوة المكيَّة، وحاور القرآن فيها مشركي العرب كثيرًا، ويمكن إبراز المنهج النبوي الشرعي فيها بما يلي:

القضية الأولى: نفي الشريك إذ إن العرب لم ينكروا وجود الله بل انحصر كفرهم بنسبة الشركاء إليه من الأصنام، والأوثان، ولذلك لما جاءهم الإسلام بالتوحيد الخالص تعجبوا من ذلك، قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥﴾ [ص: ٤-٥].

والمنهج الشرعي في التعامل مع هذه القضية هو محاورة عقولهم، تارة ببرهان قاطع للشبهة، ومزيل لها، ومفحم لأربابها، وتارة بضرب مثل من واقع الحياة المحسوسة، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

يقول الزمخشري[١] في تفسيره لهذه الآية: "هل ترضون لأنفسكم وعبيدكم أمثالكم بشر، وعبيد كعبيد، أن يشارككم بعضهم فيما رزقناكم من الأموال وغيرها تكونون أنتم وهم فيه على السواء من غير تفضلة بين حر وعبد تهابون أن تستبدوا بتصرف دونهم وأن تفتاتوا بتدبير عليهم كما يهاب بعضكم بعضًا من الأحرار؟ فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم فكيف ترضون لرب الأرباب ومالك الأحرار والعبيد أن تجعلوا بعض عبيده له شركاء"[٢].

وقد اتخذ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الفترة المكيَّة الوسائل التي تناسبها من حوار ولفت للأنظار، وتوجيه للعقول كي تفكر في السماء ومن رفعها والأرض ومن بسطها والنهر و من أجراه والمطر ومن أنزله والرياح ومن سيرها والشمس والقمر والنجوم ومن خلقها والليل والنهار ومن جعلهما متعاقبين بين النور والظلمة إلى غير ذلك مما يحيط بالإنسان في يقظته ونومه وحله وترحاله وصباحه ومسائه. وكان الوحي ينزل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تلك الفترة مبرزًا هذه الجوانب باعثًا عقول الناس على التفكير والتأمل حتى يهتدوا إلى الحق وإلى الطريق المستقيم. ومحاولًا لفت أنظار المدعوين إلى آثار قدرة الله في الأرض وفي النفس الإنسانية، وذلك بالإشارة إلى نعم الله المحيطة بالإنسان في كل ظروف الحياة يقظة أو منامًا صحةً أو مرضًا، سفرًا أو إقامةً، صغرًا أو كبرًا، إلى غير ذلك مما تقتضيه الحياة.

وحسبك أن تقرأ أي سورة أنزلت في مكة فسترى هذا التوجيه واضحًا جليًّا في ثنايا آياتها ففي سورة القصص مثلًا نقرأ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٠-٧٣]، وفي سورة النمل نقرأ قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

(١) محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري، من أئمة التفسير واللغة والأدب، توفي سنة (٣٥٨هـ) انظر: الأعلام (٧/ ١٧٨).

(٢) انظر: الكشاف (٤/ ٥٧٦).

فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ [النمل: ٥٩-٦٥].

القضية الثانية: تقرير الإيمان بالبعث، حيث إن كفار قريش كانوا يرون أن لا شيء بعد الموت من بعث وحساب وجنة ونار، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٦٧-٦٨]، وقال: ﴿وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [هود: ٧].

ومثل هذا في القرآن كثير مما يصور عقائد المجتمع ونظرة أفراده إلى الحياة والموت والبعث والحساب فكان المنهج الشرعي لتصحيح تلك المعتقدات الفاسدة مخاطبة عقولهم وجعلهم يدركون أنهم على خطأ فيما يعتقدون بالنسبة للإله والحياة والموت والجنة والنار والبعث والحساب. فأكّد القرآن الكريم في وحيه المكي على ذلك كثيرًا ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴿٧٨﴾ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [يس: ٧٨-٨١].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٦٧-٦٨].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا﴾ [الإسراء: ٤٩-٥١]، فقوله: ﴿قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾ دليل قاطع على نفي شبهة إنكار البعث، فالذي خلق العباد أولًا من العدم المحض قادر -عقلًا وواقعًا- على إعادة الحياة إليهم بعد الموت، مهما تغيرت أوضاعهم، وبليت أجسامهم.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ أي: من يعيدنا إذا كنا حجارةً أو حديدًا أو خلقًا آخر شديدًا، ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: الذي خلقكم ولم تكونوا شيئًا مذكورًا ثم صرتم بشرًا تنتشرون فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أي حال، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ الآية [الروم: ٢٧][(١)].

قال أيضًا: "يخبر تعالى عن الإنسان أنه يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته كما قال تعالى: (وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد)، (أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين) ثم (وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم) ثم قال: (يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم)، وقال ههنا: (ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيًّا) ثم (أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئًا) يستدل تعالى بالبداءة على الإعادة يعني أنه تعالى قد خلق الإنسان ولم يك شيئًا أفلا يعيده وقد صار شيئًا كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[(٢)].

النقطة الثانية:

حرصه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشديد على هدايتهم، وهو سر من أسرار نجاح الداعية، وأساس في نجاح دعوته، وانتشارها، ودافع من دوافع التحمل لما قد يصيبه من أذى في سبيل تبليغها، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ووصف الله نبيه في شدة حرصه على هدايتهم، والحزن على عدم استجابتهم له، كأنه قاتل نفسه ومهلكها، وذلك من شدة النصح لهم، والخوف عليهم[(٣)]، قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٤٦).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ١٣٢).

(٣) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (١٥/ ١٩٤)، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٤/ ٣٢٥) (١٠/ ٣٤٨)، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٢٤٨)، سيرة النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لابن هشام (١/ ٣٢٣).

النقطة الثالثة:

استخدامه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الوسائل الدعوية المناسبة، مراعيًا في ذلك التدرج، والمصالح العامة، بدءًا بالاتصالات الشخصية للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن تبعه من الصحابة، ثم الاجتماعات السرِّية، ثم دعوة الأقربين، ثم عموم الناس، والعرض في النوادي والأسواق والتجمعات، لاسيما في مواسم الحج، ثم نشر الدعوة بأسلوب الهجرة، والانتقال بالدعوة من بلد إلى آخر.

قال سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ: "ومن ثم كان بحث الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قاعدة أخرى غير مكة، قاعدة تحمي هذه العقيدة وتكفل لها الحرية، ويتاح لها أن تخلص من هذا التجميد الذي انتهت إليه في مكة، حيث تظفر بحرية الدعوة، وبحماية المعتنقين لها من الاضطهاد والفتنة ... الخ"(١).

من الوسائل الدعوية التي استعملها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الفترة المكية: -ما سبق من- لفت الأنظار المدعوين إلى آثار قدرة الله في الأرض وفي النفس الإنسانية، وذلك بالإشارة إلى نعم الله المحيطة بالإنسان في كل ظروف الحياة يقظةً أو منامًا، صحةً أو مرضًا، سفرًا أو إقامةً، صغرًا أو كبرًا، إلى غير ذلك مما تقتضيه الحياة، ولفت لأنظارهم إلى ما جرى للأقوام السابقين من نعمة وخير إن استجابوا لرسلهم وآمنوا بدعوتهم ومن عقاب و عذاب إن كذبوا وكفروا.

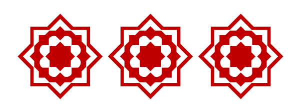
ومن الوسائل الدعوية التي استعملها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الفترة المكية: الحكمة والموعظة، والمجادلة والحوار، كما قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]. فهذه طرق ثلاثة لأصناف ثلاثة كما أشار إلى ذلك ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ(٢): "... المستجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه يدعى بطريق الحكمة، والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة

---

(١) انظر: ظلال القرآن (١/ ٢٩).

(٢) انظر: محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُرعي الدمشقي، أبو عبد الله شمس الدين، من كبار العلماء، توفي سنة (٧٥١هـ). انظر: شذرات الذهب (٦/ ١٦٨)، الدرر الكامنة (٣/ ٤٠٠).

الحسنة، وهي الأمر والنهي المقررين بالترغيب والترهيب، والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن"[(١)].



(١) انظر: مفتاح دار السعادة، لابن القيم (١/ ٥٣).

المطلب الثاني: حفظ الدعوة في جانب العدم، من ردود أفعال المخالفين لها

بلغت الدعوة الإسلامية الصحيحة أهل مكة أجمعين، وسمع بها القاصي والدَّاني، وكان المخالف لها بالإضافة إلى المتعصب للمعتقد الوثني، وما كان عليه آبائهم، ما مر من الأسباب من وجود الحاسد، والمستكبر، والمعاند ... الخ من الأسباب، ونتج عن جميع ذلك آثارًا عدائية من قبل المشركين، وقد تعامل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معها كلٌّ بحسبه، وفيما يلي بيان جانب من ذلك من خلال النقاط التالية:

۞ النقطة الأولى: تعامل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مقابل التعذيب والتضييق عليه وعلى أصحابه الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

إن ظاهرة التعذيب التي تعرض لها المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانت هي الامتحان الأكبر، في الصمود أمام جبروت قريش وطغيانها، ولم يكن التعذيب مقتصرًا على الضعفاء فحسب، بل طال حتى جسده الشريفة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -بأبي هو وأمي-، وطال أيضًا كل من نصره من قومه، كما في حادثة الشِعْب[(١)]، وكان تعامله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حول هذه الظاهر ما يلي:

أولاً: بيّن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أن ما يلقونه من صنوف العذاب أنه من سنن الله على عباده الذين آمنوا به، كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣]، ولما جاءه خباب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)] له يشكو إليه ما أصابه من العذاب قائلًا له: "يا رسول

(١) انحازت بنو هاشم وبنو المطلب -مسلمهم وكافرهم- إلى أبي طالب في دفاعه عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودخلوا معه في شعبه، ورأت قريش أن الإسلام يفشو في القبائل اجتمعت وتآمرت على أن يكتبوا كتابًا، يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب: على أن لا يَنْكحوا إليهم، ولا يُنْكحوهم، ولا يَبيعوهم شيئًا، ولا يبتاعوا منهم، فلما اجتمعوا لذلك كتبوا صحيفة، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علّقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدًا على أنفسهم. انظر: سيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لابن هشام (١/ ٣٧٢).

(٢) خباب بن الأرت بن جندلة التميمي، صحابي من السابقين، وهو أول من أظهر إسلامه، توفي سنة (٣٧هـ). انظر: الإصابة (٢/ ٢٥٨)، الاستيعاب (٢/ ٤٣٨).

الله، ألا تدعوا الله؟ فقعد وهو محْمَّر الوجه، فقال: (لقد كان من قبلكم ليُمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيُشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه)[١].

ثانيًا: حث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صحابته الكرام رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ الله على الصبر والصفح والإعراض -كما سبق- مع التذكير بالعاقبة الحميدة، (اصبروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة)[٢]، وفي حديث خباب بن الأرت السابق: (وَلَيُتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله)[٣]. وفي رواية البخاري: (ولكنكم تستعجلون)[٤].

وكما سبق فإن الصفح والإعراض هو عن الأذى، وليس عن دعوتهم كما قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ [النساء: ٦٣].

ثالثًا: الدعاء على المشركين، كقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اللهم عليك الملأ من قريش ..) الحديث[٥]، وذلك عندما وضعوا على ظهره سلى جزور، وهو ساجد، فلم يرفع رأسه حتى جاءت فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا[٦] فأخذته من ظهره، ودعت على من صنع ذلك، ثم دعا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٧]، وقد روى عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن قريشًا لما استعصوا على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجَهْد حتى أكلوا

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب ما لقي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، برقم (٣٥٦٣).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٤/ ٣٠٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٩٣): رجاله ثقات.

(٣) سبق تخريجه، وقال البخاري: وزاد بيان "والذئب على غنمه".

(٤) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، برقم (٣٣٤٣).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب ما لقي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المشركين بمكة، برقم (٣٥٦٥). ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أذى المشركين والمنافقين، برقم (٣٣٥٠).

(٦) فاطمة بنت محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمية القرشية، زوج علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، توفيت (١١هـ). انظر: الإصابة (٨/ ٥٣)، الأعلام (٥/ ١٣٢).

(٧) سبق تخريجه.

العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الدخان: ١٠-١١]" الحديث[١].

رابعًا: تهديدهم، وقد روى الإمام أحمد[٢] في مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ[٣] قوله للزبير بن العوام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ[٤]: ما أكثر ما رأيت قريشًا أصابت من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فيما كانت تظهر من عداوته، قال: حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يومًا في الحجر فذكروا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط، سفَّهَ أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرَّق جماعتنا، وسبَّ آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم أو كما قالوا، قال: فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فأقبل يمشي حتى استلم الركن ثم مرَّ بهم طائفًا بالبيت، فلما أن مرَّ بهم غمزوه ببعض ما يقول، قال: فعرفت ذلك في وجهه ثم مضى، فلما مرَّ بهم الثانية غمزوه بمثلها فعرفت ذلك في وجهه ثم مضى، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فقال: تسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنها على رأسه طائر واقع حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول حتى إنه ليقول انصرف يا أبا القاسم انصرف راشدًا فوالله ما كنت جهولًا، قال: فانصرف رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ) الحديث[٥].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، إمام أهل السنة، وأحد الأئمة الأربعة، توفي سنة (٢٤١هـ). انظر: الأعلام (١/ ٢٠٣).

(٣) عبدالله بن عمرو بن العاص، من فقهاء الصحابة، كان كثير العبادة، أسلم قبل أبيه، توفي سنة (٦٥هـ). انظر: الاستيعاب (٣/ ٩٥٦)، الإصابة (٤/ ١٩٢).

(٤) الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي القرشي، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأول من سلَّ سيفه في الإسلام، توفي سنة (٣٦هـ). انظر: الاستيعاب (٢/ ٥١٠) ، الإصابة (٢/ ٥٥٣).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٢١٨)، تاريخ الأمم والملوك (٣٢٠)، والكامل، لابن الأثير (٢/ ٧٩).

وفي قصة مساومات قريش للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -والتي سبق ذكرها- وفيها قولهم: "يا ابن أخي: إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا .. فقال له الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم .. قال فاسمع مني. ثم قال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [فصلت: ١-٦]، ثم مضى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القراءة وعتبة يسمع حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] فأمسك عتبة بفيه وناشده الرحم أن يكف عن القراءة، وذلك خوفًا مما تضمنته الآية من تهديد"[(١)].

۞ النقطة الثانية: تعامل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مقابل التعنت والعناد، وطلب المعجزات، والأسئلة التعجيزية:

إن طلب المعجزات، أو إلقاء الأسئلة التعجيزية نوع من أنواع التحدي، والذي يتطلع إلى نتائجه كل من يسمع به، وقد استعمل المشركون هذا النوع من الأساليب -كما سبق- وكان هديه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التعامل مع هذا النوع من الأساليب ما يلي:

أولًا: الاستجابة لبعض تلك المطالب، فقد أخرج الشيخان عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن أهل مكة سألوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما، وفي رواية غير الصحيحين أنهم لما رأوا ذلك قالوا: هذا سحر، سحركم ابن أبي كبشة، فانظروا إلى السفَّار فإن أخبروكم أنهم رأوا مثل ما رأيتم فقد صدق، فما قدم عليهم أحد إلا أخبرهم بذلك، فما زادهم إلا تماديًا في العناد، قال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ [القمر: ١-٢][(٢)].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٥/ ٣٣٨)، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٩١).

(٢) سبق تخريجه.

وفي قصة الإسراء والمعراج أنموذج آخر من الاستجابة، فقد روى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر الناس بالإسراء قالوا: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس، قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: نعم، قال: فمن بين مصفِّق، ومن بين واضع يده على رأسه، متعجبًا للكذب زعم! قالوا: وهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد؟ وفي القوم من سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فذهبت أنعت، فما زلت أنعت حتى التبس علي بعض النعت، قال: فجيء بالمسجد وأنا أنظر، حتى وضع دون دار عقال أو عقيل، فنعته، وأنا أنظر إليه، قال: وكان مع هذا نعت لم أحفظه، قال: فقال القوم: أمَّا النعت فوالله لقد أصاب(١)، ومما ذكره لقريش تصديقًا لهذه الحادثة إخباره عن عيرهم في مسراه ورجوعه، وأخبرهم عن وقت قدومها، وأخبرهم عن البعير الذي يقدمها، وكان الأمر كما قال فلم يزدهم ذلك إلا نفورًا، وأبى الظالمون إلا كفورًا(٢).

ثانيًا: التحدي بالمعجزات بأن يأتوا بمثلها، ولما كان القرآن معجزة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخالدة، وقد نزل: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، وكانوا هم أهل اللغة والبيان، فقد تحداهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يأتوا بمثله ثم بعشر سور ممن مثله، ثم بسورة من مثله فقال: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

ثالثًا: إثبات وظيفة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن المعجزات ليست من صنعه، أو تحت قدرته، وذلك لأن التكذيب والعناد لتلك المعجزات كان نتيجة لاستبعادهم وقوع تلك المعجزات من البشر، وهي في الحقيقة من قدرة المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولهذا لما قالوا

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١/ ٣٠٩)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (٤/ ٢٩٣).

(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٩)، الكامل، لابن الأثير (٢/ ٥٧-٥٨).

متعنتين: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [العنكبوت: ٥٠]، رد الله عليهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١]، فالطريقة الصحيحة هي إقامة الدليل قبل كل شيء على الإله، الذي يقول لشيء كن فيكون، فإذا ما اعترفوا به، لم يجدوا مانعًا من أن يؤمنوا بالدين، وما جاء به الدين من أمور تحار فيها العقول الجبارة، ومن ضمنها ما علمناه من تفصيل أخبار الإسراء والمعراج وغيرها من المعجزات[(١)].

و من النماذج الأخرى التي تدل على هذا المنهج النبوي، مطالبات قريش السابقة: "يا محمد، فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلادًا، ولا أقل مالًا، ولا أشد عيشًا منا، فسل ربك الذي بعثك بما به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيَّقت علينا، ويبسط لنا بلادنا، وليفجِّر لنا فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب[(٢)]، فإنه كان شيخًا صدوقًا، فنسألهم عما تقول، حق هو أم باطل؟! فإن صنعت ما سألناك، وصدقوك صدقناك، وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك بالحق رسولًا كما تقول ... فإن لم تفعل لنا هذا، فخذ لنفسك، فسل ربك أن يبعث ملكًا يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، واسأله فليجعل لك جناتًا وكنوزًا وقصورًا من ذهب وفضة، ويغنيك بها عما نراك تبتغي؛ فإنك تقوم بالأسواق، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولًا كما تزعم. فقال لهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرًا ونذيرًا، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم)[(٣)].

---

(١) انظر: مشكلات الأحاديث النبوية وبيانها، لعبد الله القصيمي (١٨٦-١٩٥).

(٢) قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي، سيد قريش في عصره ورئيسهم، قيل: أول من كان له ملك بني كنانة. انظر: الأعلام (٥/ ١٩٨).

(٣) سبق تخريجه.

رابعًا: مناقشتهم في بعض تلك المطالب التعجيزية، كاحتجاجهم على بطلان الحق ببشرية الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ومطالبتهم بأن يكون الرسول ملكًا من الملائكة. قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٤]، ومن ذلك قولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وقولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ٣٣ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣-٣٤]، وقد أمر المولى سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ نبيه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الاعتراف لهم بذلك: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠] إذ إن كونه بشرًا هو مقتضى العقل والحكمة، ولو كان من غير جنسهم لكانوا أشد تكذيبًا له وإنكارًا لرسالته، ولو كان ملكًا -كما يريدون- لقالوا: أين نحن منه وهو ملك ونحن بشر، ولهذا قال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٥].

خامسًا: الإعراض عنهم إن ثبت أن القصد الخالص من تلك المطالب التعنت والمجادلة والاستهزاء، وقد أخبره المولى سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ عنهم -وهو أعلم بهم- بقوله: ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤-١٥]. وبيان ذلك من نهجه لال له قوله لزعماء قريش بعد مطالباتهم التعجيزية السابقة: (فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم)[١].

۞ النقطة الثالثة: تعامل النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في مقابل الإغراءات والمساومات:

كانت الإغراءات -كما سبق- بكل ما يخطر على بال من القدرات البشرية في عصرهم: "إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا سوَّدناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا"، مدبج قبل ذلك بالمدح والثناء: "إنك منَّا حيث علمت من السِّطَة في العشيرة، والمكان في النسب ..."، وفي بعض المساومات: "إن كان إنما بك الباءة؛ فاختر أي نساء قريش فنزوجك عشرًا"، كل ذلك محاولة منهم في إيقاعه في فخ الفتنة وشراكها.

(١) سبق تخريجه.

وقد كان المنهج النبوي في التعامل أمام مثل هذه المساومات والإغراءات يتمثل فيما يلي:

أولًا: السماع والإنصات، فمن ذلك قصته مع أبي الوليد عتبة بن ربيعة، والذي خرج بتفويض من قريش، ليعرض ما يعرض عليه "... فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (قل يا أبا الوليد، أسمع)، فلما انتهى أبو الوليد مما عنده، قال له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أفرغت يا أبا الوليد؟)"[(١)].

والهدف من ذلك السماع الإقبال على الداعي؛ لبيان مزيد الاهتمام به، بالإضافة إلى نفي عدم فهم وإدراك المدعو لتلك المساومات، وإلا ربما قيل إنه لو كان سامعًا لها لاستجاب لها، فقطع عليهم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتلك الحجة.

ثانيًا: الثبات على المبدأ، وإظهار عدم المبالاة للعروض المقدَّمة إن عتبة بن ربيعة -كما في القصة السابقة- وبتفويض من قريش أتى بالملك والزعامة إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعرضها عليه لعله يقبل ما يشاء، في مفاوضات طويلة وتخويف ورجاء وتهديد، ليقول لهم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم)[(٢)].

وقوله: (أفرغت) فيه إشارة إلى عدم المبالاة بتلك الإغراءات، وأنها لا تستحق النظر، والتفكير بها.

ثالثًا: تقديم البديل لهذه الإغراءات، فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعتبة بن ربيعة بعد أن عرض ما لديه : (أفرغت يا أبا الوليد؟ ... قال: فاسمع مني. ثم قال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ

---

(١) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (١٥/ ١٦٥)، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٠/ ٣٢٨)، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٦٤)، سيرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لابن هشام (٢/ ١٣٣).

(٢) انظر: المصادر السابقة.

﴿مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: ١-٦]، ثم مضى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القراءة وعتبة يسمع)[١] القصة، وفي بعض الروايات قال له: (ما بي ما تقولون ما جئت بما جئتكم أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولًا، وأنزل عليَّ كتابًا وأمرني أن أكون بشيرًا نذيرًا، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ...)[٢].

۞ النقطة الرابعة: تعامل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مقابل أطماعهم الدنيوية:

إن الكبر والاستكبار، وطلب العلو في الأرض من الأسباب المانعة من دخول المتصفين بها إلى الإسلام، وذلك لأن الدخول في الإسلام، معناه: الخروج عن سلطان الناس وحكمهم إلى سلطان الله وحكمه وحده، وبيان ذلك يتجلى في جواب الصحابي الجليل ربعي بن عامر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لرستم ملك الروم حين سأله: "ما الذي دعاكم إلى حربنا والولوع بديارنا؟ فقال ربعي بن عامر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: جئنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ثم نظر إلى صفوف الناس الراكعين عن يمين رستم وشماله، فقال متعجبًا: لقد كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولكني لا أرى قومًا أسفه منكم، إننا معشر المسلمين لا يستعبد بعضنا بعضًا، ولقد ظننت أنكم تتواسون كما نتواسى، وقد كان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أربابًا لبعض ... فالتفت الدهماء المستضعفون إلى بعضهم يتهامسون: صدق والله العربي ..."[٣].

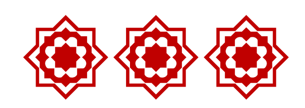
وهذا الكلام لا يناسب طالبي العلو في الأرض، ولذلك قال بعضهم: "لقد رمى بكلام لا تزال عبيدنا تنزع إليه"[٤]، وبكلام الصحابي الجليل -ربعي بن عامر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يتضح مقصود الشارع من العدل والمساواة بين الناس: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، ومع ذلك فقد ذكر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم شيئًا مما يشبعون به رغباتهم وطموحاتهم

---

(١) انظر: المصادر السابقة.
(٢) انظر: المصادر السابقة.
(٣) انظر: تاريخ الأمم والملوك للطبري (٥٩٨).
(٤) انظر: المصدر السابق.

بما يتوافق مع الشرع، ومن ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام)(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقريش عندما شكوه إلى عمه أبي طالب: (أتعطونني كلمة واحدة تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم؟). فقال أبو جهل: لله أبوك، لنعطيَّنكها وعشر أمثالها، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (قولوا لا إله إلا الله)، فنفروا من ذلك، وقاموا وهم يقولون: أجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟!(٢).

وقول ربعي بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (لا يستعبد بعضنا بعضًا) يوضحه كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال: "وكذلك طالب الرئاسة والعلو في الأرض، قلبه رقيق لمن يعينه عليها، ولو كان في الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم في الحقيقة يرجوهم ويخافهم فيبذل لهم الأموال والولايات ويعفو عنهم ليطيعوه ويعينوه فهو في الظاهر رئيس مطاع وفي الحقيقة عبد مطيع لهم، والتحقيق أن كليهما فيه عبودية للآخر، وكلاهما تارك لحقيقة عبادة الله، وإذا كان تعاونهما على العلو في الأرض بغير الحق كانا بمنزلة المتعاونين على الفاحشة أو قطع الطريق فكل واحد من الشخصين لهواه الذي استعبده و استرقه يستعبده الآخر"(٣).



(١) انظر: أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٤٨٥).

(٢) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (١/ ٥٤٤)، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٥/ ١٥٠)، وتاريخ الأمم والملوك، للطبري (٣١٨)، وسيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لابن هشام (٢/ ٢٥).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ١٨٩).

الخاتمة

الحمد لله الذي بحمده تتم الصالحات، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

ففي نهاية هذا البحث يمكننا أن نلخص أهم ما ورد فيه من خلال النقاط التالية:

الأولى: ولد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكة المكرمة في مرحلة انقطع فيها الوحي عن البشرية، فأظلمت الدنيا، وعمَّ الظلم والطغيان، فأشرقت بعثته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأرض بنور ربها، وقد كان المجتمع المكي آنذاك مجتمعًا وثنيًّا يعبد الأصنام والأوثان ولا يؤمن بالبعث والنشور.

الثانية: دعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قومه سرًّا، ثم أُمِرَ بالجهر بالدعوة، وما أن جهر بالدعوة حتى جوبه هو وأصحابه بأنواع وأساليب مختلفة من أنواع التضييق والمنع، وقد تعرض البحث لبيان نماذج ودلائل على تلك الأنواع.

الثالثة: سلط البحث الضوء على شيء من المنهج النبوي في تعامله مع ردود أفعال المخالفين لدعوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد قسَّمت المنهج النبوي بحسب تقسيم علماء المقاصد عند ذكرهم لحفظ الضروريات والتي من أهمها حفظ الدين حيث إنهم قسموا حفظها إلى قسمين حفظ من جانب الوجود، وقسم من جانب العدم.

أما القسم الأول -الحفظ من جانب الوجود- فيتمثل بالدعوة إلى الله من توحيد الله، ونفي للشرك، وكل ما يصب في خدمة ذلك من وسائل نافعة.

أما القسم الثاني -الحفظ من جانب العدم- ذكرناه في أثناء بيان منهجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ردود أفعال المخالفين لدعوته، والتي تمثل أهمها فيما يلي:

١- منهجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التعامل في مقابل التعذيب والتضييق عليه وعلى أصحابه الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

٢- منهجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التعامل في مقابل التعنت والعناد، وطلب المعجزات، والأسئلة التعجيزية.

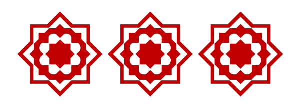
٣- منهجه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التعامل في مقابل الإغراءات والمساومات.

٤- منهجه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التعامل في مقابل أطماعهم الدنيوية.

كما تعرَّض البحث لتأصيل الأحكام المكيَّة، وبيان أحكام قسميها: الأحكام الشرعية، والأحكام السياسية، وبيان أن الأول منها يدخله النسخ، ومع ذلك لم يثبت لي من خلال البحث كثير من الأحكام المدعى نسخها، أما الأحكام السياسية فالمرجع فيها مراعاة المصالح.

هذا وأسأل الله الكريم أن أكون قد وُفِّقْتُ في بيان شيء من المنهج النبوي في التعامل مع المخالفين، لاسيما إن كان أهل الباطل هم الظاهرون والقاهرون لكي يكون نبراسًا وطريقًا لأصحاب الدعوة وعموم المسلمين للنجاة مما هم فيه في الدنيا والآخرة.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد آله وصحبه أجمعين



فهرس المصادر والمراجع

١ – الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، توزيع دار الفكر، بيروت، لبنان.

٢ – أساليب المجرمين في التصدي لدعوة المرسلين وعاقبة ذلك في ضوء القرآن الكريم، لمحمد بن عبدالعزيز المسند، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط١، ١٤٢٢هـ.

٣– أسباب النزول، لأبي الحسن النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٢هـ.

٤ – الإصابة في تمييز الصحابة، للحافظ ابن حجر، دار صادر.

٥ – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ضمن آثار الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي، تحقيق: علي العمران، دار عالم الفوائد بمكة، ط١، ١٤٢٦هـ.

٦ – الأعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦.

٧– الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه، لمكي بن أبي طالب، تحقيق: د. أحمد حسن فرحات، طبع بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، سنة ١٣٩٦هـ.

٨– البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط٣، ١٤٠٠هـ.

٩ – تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، بيت الأفكار الدولية، عمَّان، الأردن.

١٠ – تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، طبعة دار الشعب [فيما يتعلق في تأصيل أحكام العهد المكي]، ودار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ، في باقي البحث.

١١ – التفسير الكبير، للإمام فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤١٧هـ.

١٢ – جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار التربية والتراث، مكة [فيما يتعلق في تأصيل أحكام العهد المكي]، ودار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ في باقي البحث.

١٣ – الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، [فيما يتعلق في تأصيل أحكام العهد المكي]، ودار الشعب، القاهرة، ط١، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني، في باقي البحث.

١٤ – زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج عبدالرحمن الجوزي، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٤٠٤هـ.

١٥ – زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم الجوزية، تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٤، ١٤٠٧هـ.

١٦ – سنن ابن ماجه، للحافظ أبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث الإسلامي، ١٣٩٥هـ.

١٧ – سنن أبي داود، للإمام أبي داود سليمان الأشعث، إعداد: عزت عبيد الدعاس، ط١، ١٣٨٨هـ.

١٨ – سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، المكتبة التجارية، مكة.

١٩ – السنن الكبرى، للحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٣هـ.

٢٠ – سيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لابن هشام، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ.

٢١ – شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد، مكتبة القدسي.

٢٢ – الشرائع السابقة ومدى حجيتها في الشريعة الإسلامية، للدكتور عبدالرحمن بن عبدالله الدرويش، ط١، ١٤١٠هـ.

٢٣ – الصارم المسلول على شاتم الرسول، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العربية، ١٣٩٨هـ.

٢٤- ضوابط الترجيح عند وقوع التعارض لدى الأصوليين، لابن يونس الولي، مكتبة أضواء السلف، ط١، ١٤٢٥هـ.

٢٥- فقه السيرة النبوية، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر المعاصر ببيروت، ودار الفكر بدمشق، الإعادة (٢٥)، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، للطبعة (١١)، ١٩٩١م.

٢٦- فقه السيرة، للدكتور زيد بن عبدالكريم الزيد، دار التدمرية، الرياض، ط٢، ١٤٢٧هـ.

٢٧- قواعد الوسائل في الشريعة الإسلامية، للدكتور مصطفى بن كرامة الله مخدوم، دار إشبيليا الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ.

٢٨- الكامل في التاريخ (تاريخ ابن الأثير)، لعز الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري، الشهير بابن الأثير، دار صادر.

٢٩- الكشاف عن حقائق غوامض التأويل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لمحمود بن عمر بن محمد الزمخشري، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤١٨هـ.

٣٠- مشكلات الأحاديث النبوية وبيانها، عبد الله القصيمي، دار الدعوة السلفية، باكستان، ١٤٠٦هـ.

٣١- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لأحمد بن محمد الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت.

٣٢- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بمصر، مكتبة الشروق الدولية، ط٤.

٣٣- المعوقون للدعوة الإسلامية في عهد النبوة وموقف الإسلام منهم، للدكتوره سميرة محمد جمجوم، دار المجتمع للنشر والتوزيع، ١٤٠٧هـ.

٣٤- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٥- المنهج الحركي للسيرة النبوية، للدكتور منير الغضبان، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، ط١٠، ١٤١٩هـ.

٣٦- الموافقات، للشاطبي، نشر دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

٣٧- الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ط٢، ١٤٢٥هـ.

٣٨- ناسخ القرآن ومنسوخه، لهبة الله بن عبد الرحيم، ابن البازري، تحقيق: د. حاتم الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ.

٣٩- الناسخ والمنسوخ -قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ-، لمرعي بن يوسف الكرمي، تحقيق: سامي عطا حسن، دار القرآن الكريم، الكويت، ١٤٠٠هـ.

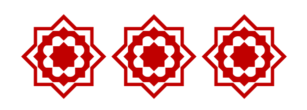
٤٠- الناسخ والمنسوخ في القرآن، لعلي بن أحمد بن حزم، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ.

٤١- الناسخ والمنسوخ، للنحاس، تحقيق: د. محمد عبد السلام محمد، مكتبة الفلاح – الكويت، ط١، ١٤٠٨هـ.

٤٢- الناسخ والمنسوخ، لقتادة بن دعامة السدوسي، تحقيق: د. حاتم بن صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٤هـ.

٤٣- نواسخ القرآن، لابن الجوزي، تحقيق: محمد بن أشرف المليباري، نشر المجلس العلمي، بالجامعة الإسلامية، ط١، ١٤٠٤هـ.

٤٤- وفيات الأعيان وأبناء الزمان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت.



فهرس الموضوعات